بسم الله الرحمن الرحيم

العدد السادس — السنة الأولى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات

مليم	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
وللطلاب	
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

شعبان سنة ١٣٧١ — مايو سنة ١٩٥٢



لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

على هامش الإسراء والمعراج :

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . . . » .

قال صاحبي وهو يحاورني : أنا أومن بأن الإسراء والمعراج كانا بالروح والبدن . ولو أن الناس فهموا أن ذلك كان بالروح فقط لما أنكر قوم على الرسول قوله ، ولما كانت هذه الآيات التي تفيد الانتقال الحسى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

ذلك إلى أن المسلم وغير المسلم . البر والفاجر كل منهم يرى الرؤيا المفاجئة ، وأنه انتقل من المغرب إلى المشرق فلا يعترض أحد عليه ؛ فلو كان الإسراء بالروح فقط لم يكن فى الأمر معجزة . مع أن الإسراء لم يكن إلا معجزة تحدى بها الرسول عليه السلام الناس ، فهو بالروح والبدن : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » .

قال : لكن الذى حاك فى صدرى أن تمت هذه الرحلة فى وقت قصير ، دون أن يصاب الرسول فيها بأذى من هول السرعة وتقلب الأجواء ، ثم العروج إلى السماوات العلا حيث لا توجد الأوساط المناسبة للحياة الإنسانية ، ومع ذلك يعود الرسول إلى بيته حيا معافى سليما ، لم تزده الرحلة إلا نشاطا دب فيه مما رأى من حباء الله تعالى له واختصاصه بالنعمة . حاك ذلك فى صدرى ؛ فلما كثرت المخترعات فى العصر الحديث ، وعرفت الطائرات ثم الطائرات النفاثة ، وتفتيت الذرة والتليفون (والراديو) إلى آخر ما هناك ، سهل ذلك عندى فهم الأمر الذى لم أكن أفهم ، وإن كنت أعترف بأن هذا ليس كذلك .

قلت لصاحبي : إن هذا ليس كذلك كما تقول ، وإياك أن يلتبس عليك أمر المخترعات الحديثة ومعجزات الرسل ؛ فليست المخترعات إلا كشفا للسنن الكونية هدى الله العقول إليها بإرادته ، كما هداهم من منذ زمان إلى الزرع والسقى والحصاد والسباحة مما يعتبر من البدهيات التى لا تلفت النظر لاعتيادنا لها وإلفنا إياها ، ولو فكرنا وتدبرنا لوجدنا أن الزرع أدخل فى باب الغرابة من الطائرة (والراديو) . وأما المعجزات فإنها مخالفة للسنة الكونية مخالفة تامة ، ولو كانت غير ذلك لما كان فيها شيء من التحدى ، ولا دلالة على صدق صاحبها . وإليك بعض أمثلة من القرآن الكريم تدلك على ذلك .

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى . قال أو لم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » فتقطيع الطير أجزاء يعدمه الحياة ، ولم يعهد أن ما ذبح من الطير أو قتل عادت إليه الحياة مرة أخرى ، ولكن الله تعالى أراد أن يؤيد عبده ونبيه بمعجزة هى إحياء الطير الميت ، واستجابته لدعائه له ، وسعيه إليه ؛ فهذه مخالفة للسنة التى سنها الله تعالى .

« قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » والسنة التى خلقها الله ألا تكون النار بردا وسلاما بل تكون محرقة مميتة .

ومعجزة موسى عليه السلام هى معجزة العصا التى تصير حية تسعى : غصن ميت من شجرة ينقلب حيوانا فإذا هو يلقف ما يأفكون . وليس فى سنن الكون ما يحيل العصا حيوانا . بل ذلك قد وقع لموسى مخالفة لهذه السنن ، ولم يقبل عقل فرعون هذه المخالفة ، بل قال حين آمن السحرة : إنه لكبيركم الذى علمكم السحر .

«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

« .. فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا » .

ولو أن هذه العبارة لم تذكر فى القرآن والإنجيل لما صدقها أحد لمخالفتها لسنة الله التى استنها لبقاء النسل على الأرض « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ولكن الله تعالى أراد أن يجعله آية لنا ورحمة منه فكانت إرادته .

هذا بعض ماجاء فى القرآن من معجزات الرسل ، وكله يسير على غير سنة ولا قاعدة ولا منطق ولا شىء مما عهده الناس أو كانوا يعهدونه أو سوف يعهدونه ؛ وإنما هى إرادة الله الذى يستطيع وحده أن يخالف ما وضع لهذا الكون من سنن ، ويضع من ذلك ما شاء لما شاء .

كذلك كان الأسراء وكان المعراج مخالفين لسنن الله التى جعلها لعباده . ومن أقدر من الله على ذلك « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

استدراك

ذكرت فى عبارة نشرتها «المسلمون» فى العدد الرابع حديثين أحب أن أصححهما .

١ — (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام) .

هذا الحديث ذكره ابن حزم فى المحلى فى غير موضع منه واستند عليه فى فقهه .

٢ — والحديث الآخر : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يد عامل ورمت من العمل فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » . وليس فيه فأخذها وقبلها فأتوب إلى الله وأستغفره . وهذا جزاء من يعتمد على ذاكرته الكليلة فى رواية الحديث ، ولم أجد له أصلا فى الكتب المعتمدة ؛ وجزى الله خيراً فضيلة الأخ الأستاذ الشيخ عبد المهيمن إمام الحرم المكى لحسن إرشاده ، وأثابه ، وعفا عنا وعنه .

حسن الهضيبى

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

حكم القرآن

١ — تتردد على ألسنة طائفة من المؤمنين الدعوة إلى الرجوع إلى حكم القرآن ؛ لأنه الأمر الذى لا مناص للمؤمن منه ، ولأنه العاصم من الزلل ، ولأنه الحق الذى لا ريب فيه ، ولأنه المانع من الزيغ ، ولأنه العلاج لهذه الأدواء التى تفشت فى المجتمع الإسلامى ، بل المجتمع العالمى ، وسرت عدواها من الغرب إلى الشرق كالأوبئة الجائحة ، وطم سيلها ، حتى أصبح الناس لا يجدون منجاة إلا من السماء وحكم السماء . فقد أخذت أولادَ آدم سَوْرَةٌ من القتل والقتال ، والظلم والاعتداء ؛ فأكل القوى الضعيف ، واستشرى ذئب الغواية ، وسيطرت الضلالة ، وأظلمت القلوب ، واستحكمت الشهوات ؛ وأصبح الناس لا يرون إلا شحا مطاعا وهوى متبعا ، واستوت فى ذلك العلاقات بين الجماعات والدول ، والعلاقات بين آحاد الأمم بعضهم مع بعض ؛ فكان لا بد من أمر يقرع هذه النفوس عن شهواتها ، ويقيدها فى أهوائها ، وينظم العلاقات على أسس من العدالة والفضيلة والكمال . ولا يكون ذلك إلا بتدين قوى ، وتهذيب دينى ، وحكم سماوى ؛ وذلك حكم القرآن .

٢ — ترددت هذه الدعوة البينة الموثقة بأقوى البراهين منادية بالنزول على حكم القرآن ، فشفت هذه الدعوة قلوب قوم مؤمنين ، وتوجّس منها خيفة بعض المسلمين ، ووجد أعداء الحق وأعداء الفضيلة الفرصة لائحة لإيجاد الثغرة بين صفوف أهل الإسلام ، أو بالأحرى لتوسيع الثغرة القائمة ، وجعلها هوة مانعة من كل اجتماع ، فانتهزوها ليكون بأس المسلمين بينهم شديدا دائماً .

وبذلك يتبين أن تلك الدعوة المباركة قد استُقبلت من وجوه ثلاثة : فأما المؤمنون ففرحوا واستبشروا ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فجمجموا ، بل تكلموا ، وما علموا أنهم بذلك ينكرون أمراً عُلم من الدين بالضرورة ، وأما أعداء الحق وأعداء الإسلام فقد أخذوا يرجفون فى المدينة ، ويتقولون على الإسلام الأقاويل ، ويثيرون الظنة بالدعاة

والدعوة ، بل أخذوا يوضعون الفتنة خلال المسلمين ، ويلهبون النيران ، ووجدوا ممن لم يدركوا حقيقة حكم القرآن آذانا تستمع ، وقلوبا تهوى ، وعقولا تتظنن .

لذلك وجب علينا أن نبين بعض حكم القرآن ؛ ليعلم الذين يتوجسون خيفة أنه لا يقلب الأوضاع ، ولا يحل عرا النظام ، بل يكون معه كلُّ أمر فى موضعه ، وكل نظام فى مستقره ، ويقوم الأمر بين الناس بالحق والميزان ، وتتجه نفوس الجميع نحو الغاية المثلى ، وطريق الكمال الإنسانى :

وإنا نعتقد أن الذين يتظننون بحكم القرآن ، سواء أ كانوا مسلمين ، أم كانون غير مسلمين ، لو علموا حقيقته لطابت به نفوسهم ؛ ولعلموا أنه سياج الجماعة من الانحراف ، وأنه يحمى الحق ويقيم العدل ، ويصون الحريات ، ويكفل المساواة العادلة ، ويرد الدعوات الظالمة ، ويهذب النفوس ، ويقوى دعائم الأخلاق .

وإنا فى هذه المقالة نبين لأولئك المتظننين بعض ما فى القرآن ، ونشير ، ولا نبين ، ونجمل بعض الإجمال ، ولا نفصل كل التفاصيل .

٤ — إن مجموعة الأحكام التى إشتمل عليها القرآن الكريم فى تنظيم الجماعة الإسلامية ، وإقامة بنيانها تتجه إلى تكوين نظام عام تحمى فيه الأنفس والأديان والأنساب والعقول ، ويكون للجماعة سياج قوى من الفضيلة والأخلاق الكريمة ؛ لتكون تلك الجماعة مثالا صالحا يحتذى فى المعاملات الإنسانية ، وتقوم علاقته بغيره على أسس من التعارف الإنسانى ، وتكريم الإنسانية فى كل إنسان سواء أكان عدوا أم كان وليآ ، كما قال تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

فنظام القرآن العام يقرر تلك الكرامة الإنسانية فى داخل الدولة الإسلامية ، ويقررها فى كل العلاقات الإنسانية ليكون التآخى العام ، أو يكون تنازع البقاء تحت ظل الفضيلة الحاكمة ؛ لا تحت ظل الغابات والآجام التى يحكم فيها الظفر والناب وحدهما .

٥ — هذا إجمال ، أو قاعدة عامة ثم نعرّج بتفصيل قليل لذلك المجمل ، أو بتفريع غير متشعب لتلك القاعدة : إن أول ما اتجه إليه الإسلام هو حماية الحريات العامة والخاصة ؛ ذلك لأن الحرية هى الإنسانية فى معناها ومغزاها ، فمن أهدر الحرية فقد أهدر الإنسانية ، وأن من يستلب منه شخص بعض حريته التى استحقها بمقتضى ناموس الوجود والفطرة التى فطر الله الناس عليها فقد نقصه بعض إنسانيته ، وسلبه بعض شخصيته . بيد أن تلك الحرية التى يحميها القرآن ليست هى الحرية المطلقة ؛ فالحرية المطلقة كالحقيقة المطلقة أمور معنوية تتخيل ولا تحس ، ولا تتحقق فى ذلك

الوجود اللاغب المتناحر ، وإن الذين ينطلقون فى حرياتهم انطلاقا يخلعون الربقة ، ويهتكون الحمى ، يُضَيِّقُون من حرية غيرهم بمقدار ماينطلقون ، ولذلك لم يبح الإسلام الحرية المنطلقة من كل القيود ؛ لأنها هدم وليست بناء ، وإنما حمى الإسلام الحرية المقيدة بشكائم من الأخلاق ، وحماية حق الغير ، ومايتصل بالحرية العامة التى تستمتع بها الجماعة الفاضلة . وإن هذه الحرية العامة هى الحرية الكلية التى تجتمع من أجزاء قد أخذت من حريات الآحاد فانتقصتها أوقيدتها ليكون فى حمى الجماعة كل واحد منها ، فمن مجموع ماينتقص من حريات الآحاد انتقاصا عادلا ستكون الحرية العامة التى تُظل الجميع ، وتعجبنى فى هذا المقام كلمة لسعد زغلول رحمه الله ، فقد قال : « كل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها ، وإلا كان ظلماً » .

٦ — لقد دعا القرآن إلى الحريات بكل أنواعها على أن تكون غير منطلقة إلى الهدم ، كما بينا ؛ فسوغ حرية التدين ، ونادى فى قوة : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وقال فى وضوح وجلاء لمخالفيه « لكم دينكم ولى دين » .

بيد أنه فى هذه الإباحة الكريمة التى لم تكن معروفة قط فى عصر نزوله ، ولم يدرك الناس معناها إلا فى العصور الأخيرة ، لم يسوغها مطلقة غير مقيدة حتى لايترتب على الإطلاق تقييد حرية الغير العادلة ؛ فأباح للنصارى أن يتدينوا بدينهم تحت ظل المسلمين ، وأباح لليهود مثل ذلك ، بل أباح للمجوس أن يقيموا طقوسهم الدينية فى معابدهم ، ومع هذه الإباحة لم يسوغ الزندقة من الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون غيره ؛ لأن ذلك تضليل ، لامجرد استمتاع بالحرية الدينية ، ولم يسوغ لذوى الأهواء أن يعبثوا بالاديان فيدخل فى الإسلام لغاية ثم يخرج منه لغاية ، بل اعتبر ذلك لعبا بالدين وتضليلا للمتدينين ؛ ولذا عاقب المرتدين ، وقال مبين القرآن وشارحه محمد صلى الله عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » واعتبر القرآن ذلك أشد التضليل فقد قال تعالى : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ، ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم سبيلا » .

٧ — وإن الإسلام قد سوغ حرية التدين تحت ظله وحماها ، فجعل لغير المسلمين الذين يكونون فى ولايته لهم ما للمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين أن يستمتعوا بحريتهم الدينية كاملة ، حتى إنهم ليستبيحون لأنفسهم تحت ظله مالايبيحه الإسلام لأهله ؛ فالإسلام حرم الخمر وأقام الحد على شاربها ، ومع ذلك أبيح لهم أن يشربوها إن كانوا

تحت حكم المسلمين ، والإسلام حرم الخنزير واعتبره رجسا ، وأبيح لغير المسلمين أن يأكلوه ، بل أكثر من ذلك أن الإسلام — ككل الأديان السماوية — حرم الزواج من البنات والأمهات وغير ذلك ، وكان المجوس يستبيحون ذلك ، فلم يمنعهم الإسلام من تلك الاستباحة التى تنفر منها الطبائع الإنسانية ، بل لقد بالغ الإسلام فى حماية حرية المخالفين إن عاشوا تحت حكمه ، واستظلوا برايته العادلة ، وإنه ليعاقب على من يعتدى على خمر أو خنزير يستبيحها ذمى ؛ فإن أراق مسلم خمراً لذمى يعيش تحت الراية الإسلامية أوقتل خنزيراً له ، أوجب الإسلام — على مقتضى استنباط الإمام أبى حنيفة وكثيرين من الفقهاء — أن يدفع قيمة ما أتلف .

ولقد هم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أن يمنع غير المسلمين الذين يعيشون فى ظل الإسلام من أن يشربوا الخمر أو يأكلوا الخنزير ويتزوجوا البنات ، فاستشار فى ذلك واعظ التابعين الحسن البصرى ، فمنعه ، وبين له أن الصحابة ساروا على ذلك ثم بين أن مخالفتهم بدعة فى الدين لا تجوز ، وقال له فى قوة وحزم : « إنما أنت متبع لا مبتدع » .

٨ — وإنه لكى يكون غير المسلمين فى حرية دينية كاملة — إن رضوا بالإقامة مع المسلمين وفى ظل دولتهم — أبيح لهم أن يتخاصموا فى أمورهم الدينية أو ما يتصل بها وفى المعاملات الخاصة بهم إلى غير القاضى المسلم العام الذى يحكم بين المسلمين ، إلا إذا كان فى القضية خصم مسلم ، فإنه فى هذه الحال لا يسوغ للقاضى غير المسلم الذى أعطى ولاية خاصة أن يحكم على المسلم ؛ وإن ذلك الحكم صريح القرآن الذى يؤخذ منه من غير تأويل ، وقد قال تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » ،

وفى ظل القرآن الكريم وجدت امتيازات طائفية كان الأصل فيها العدل المطلق والحرية السامية التى أعطاها الإسلام لغير المسلمين الذين ارتضوا ولايته . وإذا كان الإسلام العادل قد أعطاها ، فاتخذوها ذريعة للانتقاص على الحكم ، والعبث بدولته ؛ فليس العيب على الإسلام العادل ، إنما العيب فى الإنسان الناقص الذى استغل العدل ليتخذ منه بناء الظلم ، واتخذ الحرية التى منحها أهل العدل ليفسد بها أمر العادلين ، ويهزّع حكم المتقين .

٩ — وفى ظل الحرية الدينية التى أعطاها القرآن والرسول الذى بيّن القرآن وجدنا غير المسلمين فى القرون الأولى يعيشون فى ظل القرآن فى حرية دينية لم ينعموا

بها فى الأمم التى تدين بدينهم ؛ فإن الفوارق المذهبية ، ومحاولة كل فريق أن يحمل الآخر على مذهبه بسيف القوة ، وعنفوان السلطان — إن كان أحد المذهبين له سلطان — كان يذهب بالحرية الدينية ، بل إن تلك المعاملة الإسلامية الرفيقة ، وتلك الحرية المعادلة كانت سببا فى أن الذين صفت نفوسهم ، ولم يستول عليها التعصب الطائفى يدخلون فى الإسلام أفواجا أفواجا .

وإنه لإدراك الخلفاء الراشدين لمعنى الحرية الدينية العادلة لم يرهقوا أحدا أى عسر بسبب دينه ، بل وجدنا الفاروق عمر بن الخطاب تحضره الصلاة فى كنيسة فلا يصلى فيها حتى لا يتخذها الناس مسجدا فيظلموا أهلها ، بل لقد وجدنا ذلك الإمام العادل يتقدم بنفسه لإزالة التراب عن هيكل لليهود ؛ فقد رأى عند دخوله بيت المقدس وعقده المعاهدة مع أهله رأس هيكل قد دفن فى التراب ، ثم علم أنه هيكل لليهود طمره الرومان ، فأخذ عمر يزيل عنه التراب بفضل ثوبه ، فاتبعه كل جيشه فيما صنع ، فلم يمض وقت حتى زال التراب عن الهيكل ، ولو أنطقه الله تعالى لقال إن ذلك عدل الإسلام ، وحرية الإسلام ، وتسامح أهل القرآن .

ولقد كان عمر يتحرى عن أعمال الولاة الذين يوليهم الأمر فى الأقاليم ، وكان كثير من أهلها ذميين ، وأول ما يسأل عن أعمالهم هو معاملتهم لأهل الذمة ، فإن علم أنهم يأخذونهم بالرفق كان ذلك أمارة العدل ؛ وإلا كان العزل ، بل كان النكال والعقاب .

وعمر الحاكم بحكم القرآن هو الذى أمر الفتى القبطى بأن يقتص بيده من ابن عمرو ابن العاص حاكم مصر ، وأن يكون القصاص فى حضرته لكى يكون كاملا ، ولكى يشفى صدر المظلوم ، ثم يرسلها حكمة خالدة فى الإنسانية قائلا لعمرو بن العاص : « منذ كم يا عمرو تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » فكانت شعار الأحرار فى كل الأعصار والأمصار .

١٠ — هذه هى الحرية التى أعطاها القرآن لمن يكفرون به ، أعطاها لهم سمحاً كريماً ؛ لأنه يكوّن المسلم الحر الصادق فى حريته ، والحر حقاً وصدقاً هو الذى يقدر الحرية فى غيره كما يقدرها فى نفسه ، وليس حراً ذلك الذى ينطلق فى مآربه ، ويقيد حرية غيره تقييداً ظالماً ، وليس حراً ذلك الذى يوسع ما له ، ويضيق ما لغيره .

ولقد بهرت هذه الحرية الدينية التى أعطاها القرآن لمن لا يؤمنون به أنظار العلماء

المحققين من الأوروبيين الذين يميلون إلى الإنصاف أحياناً عند ما يتكلمون فى شئون الإسلام ، واقرأ ما كتبه جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب ؛ فهو يقول :

« قد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية ماندر وجوده فى دعاة الديانات أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا ؛ فعاملوا أهل سوريا ومصر وإسبانية ، وكل قطر استولوا عليه برفق عظيم ، تاركين لهم نظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة إذا ماقيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى ، على أن تكون تلك الجزية فى مقابل حفظ الأمن بينهم . فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا سمحا مثل دينهم[1] » .

١١ — تلك هى حرية المخالفين للمسلمين فى اعتقادهم التى أعطاها لهم الإسلام ، وليوازن المنصفون بين هذه الحرية التى استمتع بها اليهود والنصارى تحت ظل القرآن ، وبين ما يفعله أهل أوروبا اليوم مع مخالفيهم من المسلمين ؛ سلوا فرنسا التى تزعم أنها قادت العالم إلى الحرية والإخاء والمساواة ماذا صنعت فى المسلمين الذين يقيمون فى فرنسا عاملين فى مصانعها ، منتجين فى اقتصادها ، ماذا صنعت لهم ، وماذا أعطتهم من حرية دينية ، وسلوها ماذا صنعت فى الجزائر وتونس ومراكش ، وما أرهقت وما ضيقت من حرية دينية ، بل سلوها عما صنعت يوم صوبت الرصاص على أهل دمشق ، فلما وجه لوم إلى قائدهم اعتذر بأنه لم يقتل مسيحيا واحدا ، بل كان كل صرعاه من المسلمين ؛ ثم وازنوا بين عمل ذلك القائد ، وعمل ابن تيمية شيخ الإسلام فى القرن السابع الهجرى عندما ذهب إلى قازان ملك التتار يكلمه فى شأن الأسرى الذين أسرهم ، ففك أسرى المسلمين ولم يفك أسرى اليهود والنصارى ، فأبى ابن تيمية إلا أن يفك أسرى المسلمين ومن كانوا فى ذمتهم من اليهود والنصارى ؛ لأن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم .

ثم ليوازن المنصفون بين القرآن وما صنعت جماعة الأمم المتحدة فى فلسطين ، فلقد خربت الديار ، وأخرجت ألف الف أو يزيدون عراة يأكلهم الجوع والعرى ، والحر والقر ، ولم ترع عهدا ولا خلقا ولا اجتماعا ولا أى معنى من المعانى الإنسانية التى تربط بين بنى الإنسان . ولكن الموازنة فى الحقيقة لا تتحقق مقاييسها ، ولا تنضبط موازينها ؛ لأنها موازنة بين حكم الله الخالق العادل ، وحكم العبد المخلوق الظالم ، وموازنة بين حكم يُقَوِّى الروح ، وحكم تسيطر عليه المادة والشهوة ، وموازنة بين حكم الأخوة الإنسانية

---

(١) راجع فى هذا كتاب حضارة العرب ص ٧٢٠ جوستاف لوبون ترجمة محمد عادل زعيتر

الرابطة الجامعة التي وثقها منزل القرآن ، وبين حكم الغلب ووحشية بنى الإنسان .

١٢ — هذه الحرية التي يعطيها الإسلام بنص القرآن لمن يستظلون بلوائه ممن يخالفونه ، أما الحرية التي يعطيها جماعة المسلمين ، فهى الحرية المقيدة بالفضيلة وأحكام الدين ، وحقوق الغير . وقد كفل القرآن الكريم الحريات كلها في دائرة الفضيلة واحترام الحقوق ؛ فللمسلم بمقتضى حكم القرآن حرية الفكر ، بل إنه حرص عليه ، ودعا إليه ، ومنع المسلم من أن يتبع الآباء ، ونعى على الذين قالوا « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وإذا كان الإسلام دين العقل حقاً وصدقا ، فأول ما اتجه اليه القرآن هو تحرير العقول من الأوهام ، ومن ربقة التقليد ، ودعا إلى النظر المجرد في الكون وما فيه ، والناس وما هم عليه ، والأنفس وما استكن فيها من نزوع ومواهب « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

وأطلق القرآن حرية القول في غير اعتداء ، حتى لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم الذي ينزل عليه الوحي يستمع إلى ناقديه ، بل لقد تجاوز بعضهم الحد ، وخلع الربقة ، واستعمل حرية القول في غير موضعها فأرشده النبي ، ودعاه إلى الهدى ونهاه عن الهوى ، وعن الخروج على الجادة في رفق وحلم وأناة وصبر .

وأطلق القرآن حرية العمل بشرط ألا يتجاوز حدود الفضيلة ، ولا يعتدى على حق غيره ؛ فله أن يعمل كل ما ليس شرا ، وقد تكافأت الفرص ، وسهلت السبل ، وذلّل له الإسلام كل صعب ، ولم يحاجز بينه وبين خير يريده ، وبر يبتغيه ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

١٣ — أما الحرية الشخصية فقد وضع القرآن أصولها ، وسبق كل الشرائع فيها سبقا بعيداً ، وأتى فيها بما لم يكن معروفا عند العرب ولا عند غيرهم من الفرس والرومان الذين كان لهم السلطان ، وكانوا يحملون صور المدنية القديمة ، و ينشرون آراء الفلاسفة الذين توجت بهم المدنية اليونانية والرومانية .

ونستطيع أن نقول في غير تهجم على الحقائق إن الحرية الشخصية كانت منقوصة في حكم اليونان والرومان والعرب وغيرهم من أمم العالم ، حتى نزل القرآن ، فكان أول من كمّل هذه الحرية ودعا إليها دعوة صريحة قوية ، وإن أمارة نقصها عند الأقدمين وكمالها في القرآن الكريم حال المرأة والرقيق ؛ فإن كليهما لم يكن له حرية شخصية بالمعنى الذي يليق بالآدمية الكريمة ؛ فالرقيق لم يكن له في الأحكام التي أعطته إياه

الشرائع السابقة على شريعة القرآن أى حق من الحقوق ، بل كان يأخذ حكم البهائم ، وكان يعامل كأنه لعنة الإنسانية فى هذه الأرض ، فلم يكن إلا مالا كسائر الأموال ، ومن اعتدى عليه فقد اعتدى على مال الغير ، أما إن اعتدى عليه صاحبه فلا حق لأحد قبله ، كمن يتلف ماله ، ليس لأحد عليه من سبيل .

والمرأة كانت كالمتاع فى البيت ليس لها حقوق الإنسانية الكاملة ، بل كانت ناقصة لا يرعى لها حق فى مال ولا زواج ، بل أمر زواجها إلى غيرها ، والزواج بالنسبة لها كان رقا أو يشبه الرق ، حتى كانت تورث زوجيتها عند بعض القبائل العربية .

١٤ — جاء القرآن بأمر جديد فى هذا لم يكن معروفا ، ولم تصل إليه مدارك الفلاسفة ، فلم يذكر فى أى لفظ صريح فيه إباحة الرق ، ولكن ذكر فيه العتق ، فاستنبط الناس من الأمر بالعتق وإيجابه فى أحوال كثيرة أن القرآن يبيح الرق ، وحسب الشريعة القرآنية ذلك شرفا ، أن يكون دليل إباحة الرق فيها هو إزالته وتخفيف ويلاته .

وجد الإسلام الرق حقيقة مقررة فى الوجود فى عصر نزول القرآن ، وأسسا من أسس الاقتصاد ، وقاعدة من قواعد الحرب المعترف بها فى تلك الأزمنة ، فلا يمكن تغييره إلا باتفاق الدول فى ذلك الإبان ؛ لتكون المعاملة بينها بالقسطاط المستقيم ، فلم يجد الإسلام مناصاً من تركه ، ولكنه خفف ويلاته بطرائق ثلاث تجعله بين المسلمين صوريا إن نفذت أوامر القرآن على وجهها .

وأول هذه الطرق : تضييق سبب الرق ؛ فلم يجعل الإسلام له إلا سببا واحداً جوازيا وليس إجباريا ، وهو الأسْرُ فى الحرب العادلة التى لم تكن بغيا من قبل المسلمين ولا اعتداء ؛ فإن الإسلام لم يجوز البغى ولا الاعتداء أصلا ، فإن أسر المسلمون أسرى فى هذه الحرب جاز استرقاقهم ، أو المن عليهم ، أو فداؤهم بالمال ، وليس ولى الأمر ملزما بواحد من الثلاثة ، بل يفعل منها ما يراه المصلحة للمسلمين ، ومما يسجل أن ذلك كان علاجا وقتياً ، أو خضوعا للأمر الذى لم يكن ثمة سبيل لتغييره ، وإلا كَلِب الأعداء على المسلمين ، وصاروا يسترقون المسلمين . ولا يسترق أحد منهم ، ومما يسجل ذلك أن إباحة الاسترقاق فى الأسرى ثبتت بعمل الصحابة ، ولم تثبت بالقرآن ، فإن الله سبحانه وتعالى قال فى الأسرى ، « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » فخير ولى الأمر بين المن والفداء بالنسبة

للأسرى ، ولم يذكر الاسترقاق ، ليكون الباب مفتوحا لإلغاء الرق عند ما يكون الاتفاق الدولى على إلغائه .

١٥ — وإذا كان الشرع الإسلامى قد ضيق أسباب الرق ؛ فقد وسع القرآن أسباب العتق ، فجعله فى ذاته من أعظم القرب كما قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فكُّ رقبة » وأوجبه فى كل الكفارات لمن كان عنده رقيق ؛ فكفارة القتل الخطأ عتق رقبة ، وكفارة الصوم عتق رقبة ، وكفارة اليمين عتق رقبة ، وكفارة الظهار عتق رقبة وهكذا ، وأوجب الاتفاق بين السيد والعبد إن تعهد العبد بأداء قيمته على أن يتركه يسعى فى تحصيلها ، وعلى أن يكون ذلك ثمن حريته ، وجعل قسما من مصارف الزكاة لفك الرقاب ، يشترى ولى الأمر به عبيدًا ويعتقهم ، أو يعين من يكون بينهم وبين أسيادهم اتفاق على مال يكون فدية رقابهم ، ومن ضرب عبده فكفارته عتقه ؛ ولو أن مبادىء الإسلام نفذت كاملة فى هذا ما بقى رقيق أكثر من عام بعد استرقاقه .

١٦ — والطريق الثالث لتخفيف ويلات الرق أن الإسلام لم يهدر آدميته ، بل جعل له حقوقا ، وعليه واجبات ، ولكلامه اعتبار ، وله منزلة ؛ فالإمام أحمد ابن حنبل اعتبر شهادته كشهادة الأحرار على سواء ، وقرر أنه ليس فى الكتاب أو السنة ما يدل على إهدار شهادته . وأكثر الفقهاء على أنه يقتل الحر بالعبد ، كما يقتل العبد بالحر ، وكل الفقهاء على أن له حقوقا على مالكه ، وأن له أن يشكو من مالكه سوء المعاملة ، ويقضى له إن كانت الشكوى فى موضعها ، وهو مطالب بكل التكليفات الشرعية .

وفى الجملة إن القرآن اعتبره إنسانا له كل حقوق الإنسان ، وعليه كل واجباته ، ولم يعتبره صنفاً منحطا كما اعتبره « أرسطو » فى القديم ، بل جعله أقرب إلى الله من الأحرار إن كان فيه خير ، ولم يعتبره جنساً أرذل من بقية الأجناس كما اعتبر الأمريكان الجنس الأسود كذلك ؛ لأن القرآن تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

« يتبع »

في ظلال القرآن

للأستاذ سيد قطب

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ؛ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؛ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ؛ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ؛ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ

العجل فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم .

« وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

« وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون .

« وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا : اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كل أناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين .

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قال : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ! وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ».

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.

***

لقد مضى السياقُ من قبلُ بقصة استخلاف آدم فى الأرض. وتكريمه على الملائكة. والعهد إليه والنسيان. والتوبة عليه والمغفرة. وتزويده بالتجربة الأولى فى الصراع الأبدى فى الأرض، بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة فى إبليس، وقوى الخير والصلاح ممثلة فى الإنسان. مالم ينس عهد الله إليه ويستسلم للشيطان.

مضى السياق بهذا كله فى السورة.. ولما كان الإسلام يواجه فى المدينة — وهذه السورة مدنية — بنى اسرائيل، وكانوا أهل كتاب، وقد تفضل الله عليهم بأنعم كثيرة يتجلى فيها تكريم الله لهم وللانسان ممثلا فيهم... وكانوا هم بعد ذلك نموذجاً للكفر بنعمة الله، ونموذجاً لاتباع الشيطان، والحيدة عن الهدى. فى ماضيهم مع أنبيائهم، وفى حاضرهم مع النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، مبشراً برسالته التى تصدق ما بين أيديهم من الكتاب، وتكمله وتضمه فى قالبه الأخير.. لما كان الأمر كذلك جرى السياق هنا بتذكير بنى إسرائيل بأنعم الله عليهم وتذكيرهم فى فى الوقت ذاته بمواقفهم من تلك النعم.. وكانت هنالك صلة خفية بين استعراض تكريم آدم وذكر تكريم بنى إسرائيل. وبين استسلامهم للشيطان بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق وتجربة أبى البشر ووصية ربه له بالحذر.. صلة خفية فى سياق السورة التى تضم هذا وذاك.

فلنعش هنا لحظات فى ظلال قصة النعمة وكفرانها ممثلة فى تاريخ بنى إسرائيل كما يستعرضها السياق...

***

إن القرآن لايعرض هنا قصة بنى إسرائيل. إنما هو يشير إليها باختصار. يشير إلى النعم التى وهبها الله لهم واحدة واحدة، لا على سبيل الاستقصاء، ويعقب بموقفهم

من هذه النعم ، وبعاقبة هذا الموقف فى كل مرة . أما القصة ذاتها فهى مذكورة فى سورة أخرى ، متفقة هنالك مع السياق الذى تعرض فيه .. وهى هنا كذلك متفقة مع السياق : سياق تكريم البشرية وعصيانها ورحمة الله بها ... إلخ . متضمنة مع هذا إشارات إلى وحدة دين الله ، ووحدة رسالته ؛ مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها ، وإلى عواقب انحرافها عن هذه المقومات التى يناط بها تكريم الله للبشر ، واستخلافهم فى الأرض ؛ فإذا هم كفروها فقد كفروا إنسانيتهم وقد ارتكسوا وانتكسوا ، وقيل لهم : كونوا قردة خاسئين .

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياىَ فارهبون . وآمنوا بما أنزلتُ مصدِّقا لما معكم ولا تكونوا أولَ كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

أى عهد هذا الذى يشار إليه هنا ، ويطلب من بنى إسرائيل الوفاء به ؟ ألعهد الأول . عهد الله لآدم أبى البشر : ألا يستسلم للشيطان وألا ينسى أمر الديان؟ أم العهد الكونى المعقود بين فطرة البشر وبارئها ، العهد الذى لايحتاج إلى بيان ولا يحتاج إلى برهان ؛ لأن وجود الإنسان ذاته متسقة فطرته مع فطرة الكون الذى يعيش فيه ، خاضعا من داخله للناموس الذى يسيِّر الكون ويسيره .. هو برهانه وهو بيانه . ذلك العهد الذى يقول عنه القرآن فى موضع آخر : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ بربكم قالوا : بلى » . ولن يزيغ عنه إلا من انحرفت فطرته ، لأنه كامن فى الفطرة منذ نشأتها ؟ أم هو العهد الذى قطعه الله على بنى إسرائيل وقد نتقت الصخرة فوقهم كأنها ظلة ، وأمروا أن يأخذوا عهدهم بقوة ، والذى يأتى ذكره فى هذا السياق ذاته ؟

إن هذه العهود جميعا إن هى فى صميمها إلا عهد واحد ، وإن تعددت أسماؤه ومناسباته . إنه العهد بين البارىء وعباده أن يصفوا قلوبهم له وأن يصغوا قلوبهم إليه ، وأن يسلموا أنفسهم بكاملها خالصة لله . وذلك هو الدين الواحد ، وذلك هو الإسلام الذى لن يرضى الله من بشر سواه : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » . « إن الدين عند الله الإسلام » .

ووفاء بهذا العهد يأمر الله بنى إسرائيل هنا « وآمنوا بما أنزلتُ مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » فما الإسلام الذى جاء به محمد إلا الدين الواحد الخالد فى

صورته الأخيرة ، وهو امتداد لرسالة الله ولعهد الله « مصدقا لما معكم » يضم جناحيه على مامضى ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتي ، ويوحد بذلك بين « العهد القديم [١] » ، « والعهد الجديد [٢] » والعهد الأخير ، كما يوحد بين البشرية كلها في أجيالها جميعا ، وفي أهدافها جميعا ، ويجمع البشر إخوة متعارفين ، يلتقون على عهد الله ودين الله ؛ ولا يتفرقون شيعا وأحزابا ، وأمما وأجناسا ، ولكن عباد لله مستمسكون جميعا بعهده الذي لايتبدل منذ فجر الحياة .

« ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا » وقد كان اليهود من بني إسرائيل هم الذين يجاورون الإسلام في المدينة . والثمن والمال والمادة هي شنشنة اليهود من قديم . وقد كان أحبارهم ورهبانهم في ذلك الحين هم الحفظة على ما بين أيديهم من الكتاب ، وهم كهنة الدين ، ما شاءوا أطلعوا الناس عليه منه وما شاءوا كتموه ، وكانوا يحرفون الكلم عن مواضعه استبقاء لما بين أيديهم من سلطان ومن منافع ومن مناصب . وكانوا يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون . . فنهاهم عن هذا كله ، في معرض تذكيرهم بعهد الله ، ودعوتهم إلى الوفاء بهذا العهد ، والإيمان بالدين الجديد ، الذي يصدق ما بين أيديهم من الدين القديم .

وتوحيداً للدين كله ، ودخولا في الإسلام في صورته الأخيرة كان الأمر بتأدية شعائره كما جاء بها محمد بن عبد الله ورسول الله إلى البشر كافة ، وخاتم رسل الله : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » توحيداً لهيئة العبادة ، بعد توحيد موضوع العبادة ، وسبب العبادة .

ثم سؤال استنكاري لحالة أولئك الأحبار والرهبان : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟ » .

فهم بحكم قيامهم على الدين ، كانوا يقومون بالوعظ والإرشاد والدعوة إلى الدين . وهم في الوقت ذاته يصدون عن الإسلام ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق الذي يعرفونه بحكم معرفتهم لما عندهم من دين الله . وتلك آفة رجال الدين في معظم العصور . . . إنهم يتخذون الدين حرفة ، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ويؤولون النصوص خدمة لأغراضهم أو أغراض ذوي السلطان ، ويجدون « فتاوى » تتفق في ظاهرها مع النصوص ، وتختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، يبررون بها الأخطاء والخطايا ، ويحققون بها ثمنا مهما عظم فهو قليل ، إلى جانب الأمانة التي في أعناقهم ، والعهد الذي قطعه الله عليهم .

---

(١) كتاب موسى . (٢) كتاب عيسى .

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه ، هى الآفة التى تصيب النفوس بالشك لا فى الدعاة وحدهم ولكن فى الدعوة ذاتها . وهى التى تبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ، ويشهدون فعلاً قبيحا . فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ، وتخبو فى أرواحهم الشعلة التى توقدها الحماسة ، وينطفىء فى قلوبهم النور الذى يشعه الإيمان . ولا يثقون فى الدين لأنهم فقدوا ثقتهم فى رجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث ميتة وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هى لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيماً واقعيا لما ينطق . . عندئذ يؤمن الناس ويثق الناس ، ولو لم يكن فى تلك الكلمة طنين ولا بريق . . . إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها ، وتستمد جمالها من بساطتها لا من بريقها . . . إنها تصبح يومئذ دفعة حياة لأنها منبثقة من حياة .

والمطابقة بين القول والفعل ، أو بين العقيدة والسلوك ليست مع ذلك أمراً هينا ولا طريقا معبدا ، إنما هى فى حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة ، وإلى صلة بالله ، وإلى صبر ودأب . . ومن هنا تلك الدعوة الموجهة : « واستعينوا بالصبر والصلاة . وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ».

« يظنون أنهم ملاقوا ربهم » تعبير يلفت النظر . فلم لم يقل يستيقنون . وهم يستيقنون ؟ . . أحسب أنه يراد أن يقال : إن أدنى العلم بلقاء الله كفيل بان يترك فى النفس آثاره . كفيل بأن يهب الروح قوة ، وأن يشد من عزيمتها على المصابرة والمحاولة ، كفيل بأن تخشع له القلوب وتلين له النفوس ، وتطمئن به الأرواح . إنه سمة من سمات « المتقين : الذين يؤمنون بالغيب » الذين تفتحت أرواحهم للنور واتصلت من وراء الحجب بالنبع ، واستيقظت فطرتهم للعهد الكونى الكامن فى ضمير الوجود .

***

ومن ثم رجعة إلى بنى إسرائيل ، لتذكيرهم بالنعمة والتفضيل ، قبل الإشارات إلى مواضع هذه النعمة على وجه التفصيل : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » فضلتكم بما آثرتكم به من شتى النعم ، ومن عفوى عنكم وغفرانى لكم بعد كفرانكم لكل نعمة ، حتى استوفيتم حظكم من الإنعام وحظكم من التفضيل ؛ ثم انتهيتم إلى العصيان الذى أسلمكم إلى غضب الله

الأخير ، الذي جاء به السياق في نهاية تلك الآيات . . . ثم ها هي ذي الفرصة تتاح المرة الأخيرة بين يدي الإسلام ، فمن شاء انتهز الفرصة المتاحة ، ومن شاء ظل في ضلاله القديم .

وقبل أن يخلص من هذا إلى بيان تلك النعم وتفصيلها يحذرهم يوم الحساب الأخير . ويقرر ذلك المبدأ الإسلامي العظيم ، مبدأ التبعة الفردية والعدل المطلق ؛ ويشير إلى الفرصة الأخيرة التي لن تتاح بعد ذلك ولن تعود . . . والتبعة الفردية فرع عن تكريم الإنسان . الإنسان الذي وهب المعرفة ووهب الإرادة ، فحقت عليه التبعة ، ووجد العدل المطلق الذي لا تقبل فيه شفاعة . ومنح الفرصة ليذهب بنفسه إلى المصير الذي يريد : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » .

ثم يمضي السياق يعدد آلاء الله على بني إسرائيل : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب » ، « وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون » « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده . . » الخ . الخ .

وماذا كان الرد على إنعام الله وتفضيله ؟

اتخاذ العجل للعبادة بمجرد غيبة موسى لتلقي الألواح ، ونسيان العهد والانحدار إلى الإشراك بالله عجلا من الذهب له خوار ! . . ولم يكن بدٌّ حينئذ من التطهير القاسي . فتلك الطبيعة المنهارة الخاوية لا يقومها إلا عقوبة قاسية ، وتأديب عنيف . عنيف في طريقته وفي حقيقته : « يا قوم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم » . . اقتلوا أنفسكم . ليقتل بعضكم بعضاً . ليقتل البريء منكم المذنب ليطهره ويطهر قومه . إن هذا التكليف لعنيف : أن يتولى بعضهم قتل بعض ، ولكنه كذلك تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التي لا تتماسك ولا تتناهى عن المنكر ؛ ولو تناهوا عن المنكر في غيبة موسى ما وقع ذلك الضلال ، وإذ لم يتناهوا باللسان فليتناهوا بالسيف ، فإنه في هذه الحالة شفاء !

وهنا تدركهم رحمة الله . بعد التطهير . « فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم » .

إلا أن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » . إنهم هم ، غلاظ حس ، ومادية فكر ، واحتجاباً عن مسارب الإيمان : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » . فالحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة ، والآيات البينات ، والنعم والآلاء ، والتوبة والمغفرة . كلها لا تغير من هذه

الطبيعة المادية الغليظة ، التى لا تؤمن إلا بالمادة ، ولا تخضع إلا للعنف : « فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » .

ومرة أخرى تدركهم رحمة الله ، وتوهب لهم الفرصة بعد الفرصة للنجاة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ولكنهم لم يشكروا ، ولم يعرفوا حق النعمة ، ولم تتفتح قلوبهم للطاعة ، ولم تستقم فطرتهم على الهدى . لقد أمروا أن يدخلوا « هذه القرية » ولم يرد اسمها فى هذا الموضع ، لأنه ليس المقصود هنا تفصيل الحوادث ؛ إنما المقصود هو الإشارة فقط إلى مواقف معينة فى حياة بنى إسرائيل ، لذلك نتركها نحن مجهلة كما وردت فى هذا السياق ولا نفصح عنها إلا حيث يفصح عنها القرآن فى مواضع الإفصاح . المهم أنهم لم يستمعوا للأمر ولم يستقيموا على الهدى . لقد قيل لهم : « ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة » دعوة لله أن يحط عنهم أوزارهم ويغفر لهم ، وقد وعدوا المغفرة لو أطاعوا . ولكن التواء طبيعتهم نأى بهم عن استقامة القصد والقول : « فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم . فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً[1] من السماء بما كانوا يفسقون » .

ثم يمضى السياق فى الاستعراض :

« وإذ استسقى موسى لقومه » وهم بين الصحراء بصخورها ، والسماء برجومها . فأما الصخر فقد أنبع لهم منه الماء فى جوف الصحراء : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً » بعدة أسباط بنى إسرائيل : « قد علم كل أناس مشربهم » ، وأما السماء فأيدتهم بغذاء المن والسلوى . عسلا وطيراً : « كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا[2] فى الأرض مفسدين » .

ولكن البنية النفسية المتهارة المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، تأبى على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التى من أجلها خرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا فى الصحراء . لقد أخرجهم موسى من الذل والهوان ، ليورثهم الله الأرض المقدسة وليرفعهم من المهانة والضعة . وللعزة تكاليف ، وللحرية ثمن ، ولكنهم لا يريدون أن ينهضوا بتلك التكاليف ، ولا يريدون أن يؤدوا هذا الثمن . حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة اللينة . حتى بأن يغيروا من طعامهم وشرابهم اليومى وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة فى طريقهم إلى العزة والمجد والكرامة . إنهم يريدون الأطعمة التى ألفوها من قبل بلا تغيير : « وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ،

(١) عذاباً . (٢) تعتدوا .

فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها »
ولم يتمالك موسى نفسه من العجب والاستنكار : « قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية : « اهبطوا مصراً فإن لكم ماسألتم » عودوا إلى مصر . عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة . عودوا إلى الذل والهوان . عودوا إلى حيث تستحق نحيزتكم الذليلة : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » جزاء وفاقاً لأنهم لايملكون الاستعلاء فى سبيل فكرة وكرامة على المطالب والشهوات ، ومن يأب العزة يلق الهوان ، ومن لا يصبر على تكاليف الحرية جزاؤه الذل والحرمان ، « وباءوا بغضب من الله » جزاء وفاقاً على نكران النعمة ، ونسيان العهد ، والفسوق عن أمر الله والتمادى بعد ذلك فى الكفر والمعصية ، حتى ليقتلون أنبياءهم بغير الحق ، ويعتدون على حرمات الله بلا تحرج .

وهنا يقرر السياق قاعدة من القواعد الكلية التى تتخلل القصص فى القرآن أو تسبقه أو تتلوه ؛ لأن القصص يرشح لها أو يسوق إليها أو يؤيدها . يقرر قاعدة وحدة الإيمان ووحدة العقيدة مهما تعددت الأسماء والدعوات . متى انتهت إلى إسلام النفس لله ، والإيمان به ، والعمل الصالح فى عباده : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين [1] : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » وما أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من الذلة والمسكنة والغضب ، إلا لأنهم حادوا عن ذلك الطريق الواحد الذى رسمه الله لعباده على توالى الأزمان وتعدد الرسالات .

ثم يعود إلى السياق الأصيل فى استعراض مواقف بنى إسرائيل : « وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون »
كيف رفعت الصخرة فوق بنى إسرائيل ؟ ليفسره علماء الطبيعة بما يشاءون من الجاذبية والضغط ؛ فإن قوانين العلم المعروفة اليوم لا تمنع أن يعلق جسم فى الفضاء متى توافر له وضع خاص من أجرام أخرى معلقة كذلك فى الفضاء . وما النجوم والكواكب إلا كتل متفاوتة الحجم معلقة كلها فى الفضاء ! وليقل المؤمنون بقدرة الله التى لا تحد : إنها معجزة لم يؤتها إلا موسى .. إن الأولين يلتقون مع الآخرين فى أن هذه الظاهرة تسير وفق ناموس مجهول المنشأ لا يملك أن يصرفه الإنسان . وما كان موسى أو سواه ليدركه إلا بإرادة خاصة من قوة أعلى .

---

(١) عبدة النجوم

« خذوا ما آتيناكم بقوة » .. ليتم التناسق بين قوة المشهد . قوة ارتفاع الصخرة واستقامتها فى فضاء الله بأيدِ الله . وقوة أخذ العهد وأخذ الأمر . القوة الصارمة التى تحتاج إليها العزائم الواهنة والهمم المنهارة ، والرفع والارتفاع ، اللذان تحتاج إليهما الطبائع المتهاونة ، والجباه التى لا تتطلع إلى السماء ، وإنما تنكس دائماً فى الرغام !

ولكن هيهات هيهات ! لقد أدركت إسرائيل طبيعتها ، بمجرد انطلاقها من هذا الموقف الرهيب الشديد : « ثم توليتم من بعد ذلك ، فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » !

ومرة أخرى يستعرض السياق مظهراً من مظاهر النكسة والارتكاس فى حياة بنى إسرائيل . مظاهر التحلل من العهد ، والعجز عن الاستمساك به ، والضعف عن تكاليفه ، والتفلت من مواثيقه ، والسير مع الهوى أو المنفعة القريبة ، التى لا تكلف جهداً ولا تستدعى مشقة ، ولا ترتفع عن مهابط الشهوات : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت » الذين لم يراعوا حرمة هذا اليوم المقدس عندهم بمجرد أن عرضت لهم منفعة . عندئذ كان جزاء النكول عن التكليف والنكث بالعهد ، هو النكسة إلى عالم الحيوان الذى لا إرادة له فلا تكليف عليه . هو فقدان المزية الأولى التى تجعل من الإنسان إنسانا ، وهى الإرادة : « فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » فقد هبطوا عن مرتبة الإنسان عندما تخلوا عن تكاليف الإنسان . . وليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم . ذلك فضلا على ما تثبته المشاهدات من أن طريقة التفكير والشعور تؤثر فى السحنة والملامح والسمات . « فجعلناها » تلك الواقعة « نكالا لما بين يديها وما خلفها (٢) وموعظة للمتقين » فالمتقون هم الذين يدركون الموعظة وينتفعون بها ويؤمنون ؟

يؤسفنا أن يحرم هذا العـــدد من مقال فضيلة الأستاذ البهى الخولى فى « قصص القرآن » بسبب عذر له ، أعانه الله وأيده بروح منه .

التحرير

---

(١) عبرة رادعة



لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

(٦)

البواعث التى أدت إلى الوضع فى الحديث والبيئات التى نشأ فيها

ذكرنا فى العدد الماضى أن الخلافات السياسية التى نشأت بين المسلمين فى أواخر خلافة عثمان ، وفى خلافة على كانت سبباً مباشراً فى وضع الحديث ، وقد بيّنّا أن أول من تجرأ على ذلك هم الشيعة ؛ فيكون العراق أول بيئة نشأ فيها الوضع . وقد أشار إلى هذا أئمة الحديث حيث كان الزهرى يقول : « يخرج الحديث من عندنا شبراً فيرجع إلينا من العراق ذراعاً[1] » وكان مالك يسمى العراق « دار الضرب » أى تضرب فيها الأحاديث وتخرج إلى الناس كما تضرب الدراهم وتخرج للتعامل . وإذا كان السبب المباشر فى وضع الحديث الخلافات السياسية ، فلا شك أنه حدث بعد ذلك أسباب أخرى كان لها أثر فى اتساع دائرة الأحاديث الموضوعة . ونستطيع أن نجمل فيما يلى جميع الأسباب التى أدّت إلى الوضع فى الحديث موجزين فى ذلك ما استطعنا :

أولا : الخلافات السياسية

فقد انغمست الفرق السياسية فى حمأة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة وقلة ؛ فالشيعة أو الرافضة أكثر هذه الفرق كذبا . سئل مالك عن الرافضة فقال : « لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون[2] » ويقول شريك بن عبدالله القاضى ، وقد كان معروفاً بالتشيع مع الاعتدال فيه : « احمل عن كل من لقيت إلا الرافضة ؛ فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا[3] » . وقال حماد بن سلمة حدثنى شيخ لهم — يعنى الرافضة — قال : « كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئاً جعلناه حديثاً[4] » . وقال الشافعى : « مارأيت فى أهل الأهواء قوماً أشهد للزور من الرافضة[5] » .

---

(١) ابن عساكر مخطوط .
(٢) منهاج السنة جـ ١ ص ١٣
(٣، ٤) منهاج السنة .
(٥) هامش الباعث الحثيث ص ١٠٩

ومن أمثلة ما وضعوه من الأحاديث حديث الوصية فى غدير خم ؛ وخلاصته أن النبي صلى الله عليه وسلم فى رجوعه من حجة الوداع جمع الصحابة فى مكان يقال له غدير خم ، وأخذ بيد على رضى الله عنه ، ووقف به على الصحابة جميعا وهم يشهدون ، وقال : « هذا وصي وأخي والخليفة من بعدى ؛ فاسمعوا له وأطيعوا » وهو حديث مكذوب بلا شك وضعته الرافضة ، ومن ذلك : « من أراد أن ينظر إلى آدم فى علمه ، وإلى نوح فى تقواه ، وإلى إبراهيم فى حلمه ، وإلى موسى فى هيبته ، وإلى عيسى فى عبادته فلينظر إلى على » ومنها : « أنا ميزان العلم ، وعلى كفتاه ، والحسن والحسين خيوطه ، وفاطمة علاقته ، والأئمة منا عمود توزن فيه أعمال المحبين لنا والمبغضين لنا » ، « حُبُّ علىٍّ حسنة لا يضر معها سيئة ، وبغضه سيئة لا ينفع معها حسنة » ، ومثل ما وضعوا فى حق فاطمة رضى الله عنها : « لما أسرى بالنبي أتاه جبريل بسفرجلة من الجنة فأكلها ، فعلقت السيدة خديجة بفاطمة ؛ فكان إذا اشتاق إلى رائحة الجنة شم فاطمة » . وأمارات الوضع ظاهرة على هذا الخبر ؛ فإن فاطمة ولدت قبل الإسراء ، كما أنّ خديجة ماتت قبل أن تفرض الصلاة . وقد كان فرضها ليلة الإسراء بالإجماع .

وكما وضعوا الأحاديث فى فضل على وآل البيت ، وضعوا الأحاديث فى ذم الصحابة وخاصة الشيخين وكبار الصحابة حتى قال ابن أبى الحديد : « فأما الأمور المستبشعة التى تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة ، وأنه ضربها بالسوط فصار فى عضدها كالدملج ، وأن عمر ضغطها بين الباب والجدار فصاحت يا أبتاه ، وجعل فى عنق على حبلا يقاد به ، وفاطمة خلفه تصرخ ، وابناه الحسن والحسين يبكيان . ثم أخذ فى ذكر الكثير من المثالب ثم قال : فكل ذلك لا أصل له عند أصحابنا ، ولا يثبته أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ؛ وإنما هو شىء تنفرد الشيعة بنقله[1] » . وكذلك وضعوا الأحاديث فى ذم معاوية : « إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه » وفى ذم معاوية وعمرو بن العاص : « اللهم اركسهما فى الفتنة ، ودعهما فى النار دعًّا » .

وهكذا أسرفت الرافضة فى وضع الأحاديث بما يتفق مع أهوائها ، وبلغت من الكثرة حداً مزعجا ؛ حتى قال الخليل فى الإرشاد : « وضعت الرافضة فى فضائل على وأهل بيته نحو ثلاثمائة ألف حديث » ومع ما فى قوله من المبالغة فإنه دليل على كثرة ما وضعوا من الأحاديث . ويكاد المسلم يقف مذهولا من هذه الجرأة البالغة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن يعلم أن هؤلاء الرافضة أكثرهم من الأعاجم

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣٥

الذين تستروا بالتشيع لينقضوا عرى الإسلام ، أو ممن أسلموا ولم يستطيعوا أن يتخلوا عن كل آثار دياناتهم القديمة ؛ فانتقلوا إلى الإسلام بعقلية وثنية لا يهمها أن تكذب على صاحب الرسالة لتؤيد حباً ثاوياً فى أعماق أفئدتها . وهكذا يصنع الجهال والأطفال حين يحبون وحين يكرهون .

وقد قابلهم الجهلة من عامة أهل السنة الذين راعهم ما دسّ أولئك من أحاديث مكذوبة فقابلوا — مع الأسف — الكذب بكذب مثله ، وإن كان أقل منه دائرة ، وأضيق نطاقاً ؛ ومن ذلك: « مافى الجنة شجرة إلا مكتوب على ورقة منها لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق ، عثمان ذو النورين » .

كذلك قابلهم المتعصبون لمعاوية والأمويين ، مثل قولهم : « الأمناء ثلاثة : أنا وجبريل ومعاوية » ، « أنت منى يا معاوية وأنا منك » ، « لا أفتقد فى الجنة إلا معاوية فيأتى آنفا بعد وقت طويل ، فأقول : من أين يا معاوية ، فيقول : من عند ربى يناجينى وأناجيه ، فيقول هذا بما نيل من عرضك فى الدنيا » .

وكذلك فعل المؤيدون للعباسيين فوضعوا إزاء حديث وصاية على المكذوب وصاية العباس ، ونسبوا إلى النبى قوله : « العباس وصيى ووارثى » ولعل مما يبين مدى الكذب لدى هذه الفئة الحديث المكذوب التالى : أن النبى قال للعباس : « إذا كان سنة خمس وثلاثين ومائة فهى لك ولولدك منهم السفاح والمنصور والمهدى »

هل كان الخوارج يكذبون فى الحديث ؟

وقد ذكر العلماء هنا بأن أقل الفرق الإسلامية كذباً هى فرقة الخوارج الذين خرجوا على علىّ بعد قبوله التحكيم ، ويرجع قلة كذبهم إلى أنهم يرون كفر مرتكبى الكبيرة على ما هو المشهور عنهم ، أو مرتكبى الذنوب مطلقاً كما حكاه الكعبى[1] ؛ فما كانوا يستحلون الكذب ولا الفسوق ، وقد كانوا من التقوى على جانب عظيم . ومع ذلك فلم يسلم بعض رؤسائهم من الكذب على الرسول ؛ فقد روى عن شيخ لهم أنه قال : « إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ؛ فإنّا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثا[2] » ويقول عبد الرحمن بن مهدى : إن الخوارج والزنادقة قد وضعوا هذا الحديث « إذا أتاكم عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله ؛ فإن وافق كتاب الله فأنا قلته . . . الخ » .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٤٥

(٢) ابن الجوزى مقدمة كتاب الموضوعات ، والسيوطى فى اللآلىء ٢ / ٤٦٨

هكذا قال الكاتبون فى هذا الموضوع من القدامى والمحدثين ، ولكنى لم أعثر على حديث وضعه خارجى ؛ بحثت كثيراً فى كتب الموضوعات فلم أعثر على خارجى عدّ مع الكذابين والوضاعين . أما النص السابق الذى يذكرونه عن شيخ للخوارج فلا أدرى من هو هذا الشيخ ؟ وقد سبق مثل هذا النص يرويه حماد بن سلمة عن شيخ رافضى؛ فلماذا لاتكون نسبته إلى شخص خارجى خطأ ؟ خصوصاً ولم نعثر لهم على حديث واحد موضوع .

أما قول عبد الرحمن بن مهدى عن حديث إذا أتاكم . . إلخ أنه وضعته الزنادقة والخوارج فلا أدرى مدى صحته بالنسبة لابن مهدى ؟ بل هو قول لادليل عليه إذ لم يذكر لنا من هو واضعه ؟ ومتى تم هذا الوضع ؟ . ومما يؤكد شكنا فى هذه النسبة أنه أضاف هذا الحديث أيضاً إلى الزنادقة ؛ فكيف اتفق الخوارج والزنادقة على وضعه ؟ هل وضعوه فى وقت واحد ؟ أم سبق الخوارج إلى ذلك أم الزنادقة ؟ . على أن المنقول عن غير ابن مهدى لفظ الزنادقة فقط : قال فى عون المعبود (٤ / ٣٢٩) فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق فخذوه » فإنه حديث باطل لا أصل له ، وقد حكى زكريا الساجى عن يحيى بن معين أنه قال : هذا حديث وضعته الزنادقة ، ونقل الفتنى فى تذكرة الموضوعات (٢٨) عن الخطابى أنه قال أيضاً وضعته الزنادقة ، وليس فى هذين النصين ذكر للخوارج بحال . على أن بعضهم حكم على هذا الحديث بالضعف فقط .

لقد كنت أتمنى أن أعثر على دليل علمى يؤيد نسبة الوضع إلى الخوارج ، ولكنى رأيت الأدلة العلمية على العكس تنفى عنهم هذه التهمة ؛ فقد كان الخوارج كما ذكرنا يكفِّرون مرتكب الكبيرة ، أو مرتكب الذنوب مطلقا . والكذب كبيرة ؛ فكيف إذا كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يقول المبرد فى كامله (١٠٦/٢): « والخوارج فى جميع أصنافها يبرأون من الكاذب ، ومن ذوى المعصية الظاهرة » وكانوا فى جمهرتهم عربا أقحاحا ؛ فلم يكن وسطهم بالوسط الذى يقبل الدسائس والزنادقة والشعوبيين كما وقع ذلك للشيعة ، وكانوا فى العبادة على حظ عظيم ، وكانوا شجعاناً صرحاء لا يجاملون ولا يلجأون إلى الفتنة كما يفعل الشيعة . وقوم هذه صفاتهم يبعد جداً أن يقع منهم الكذب . ولو كانوا يستحلون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحلوا الكذب على من دونه من الخلفاء والأمراء والطغاة : كزياد والحجاج . وكل ما بين أيدينا من النصوص التاريخية يدل دلالة قاطعة على أنهم واجهوا هؤلاء الحكام والخلفاء والأمراء بمنتهى الصراحة والصدق ؛ فلماذا يكذبون بعد ذلك ؟ على أنى أعود فأقول :

إن المهم عندنا أن نلمس دليلا محسوساً يدل على أنهم ممن وضعوا الحديث ، وهذا ما لم أعثر عليه حتى الآن . كيف وقد قال أبو داود : « ليس فى أهل الأهواء أصح حديثاً من الخوارج » ويقول ابن تيمية : « ليس فى أهل الأهواء أصدق ولا أعدل من الخوارج » ويقول عنهم أيضاً « ليسوا ممن يتعمدون الكذب ؛ بل هم معروفون بالصدق حتى يقال إن حديثهم أصح الحديث[1] » .

هذا هو السبب الأول من أسباب الوضع فى الأحاديث ، وسنتناول بقية الأسباب فى العدد القادم إن شاء الله ؟



***

المقربون . . .

يروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الشوق إلى الجنة ، فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون . أنتم المقربون . أنتم المقربون .

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٣١

ركائز دعوة الإسلام

(١) تمهيـــد

تيــــار :

لم يعد يصعب على المراقب للحوادث والأخبار فى سائر أقطار الإسلام أن يلمح فى زحمتها تياراً إسلاميا واضحا قد يختلف قوة وضعفا هنا وهناك ؛ ولكنه قائم على كل حال ، ماض فى سبيله بالرغم من العقبات الكثيرة التى ورثها من آثار الماضى القريب والبعيد ، ولا تزال تقيمها أمامه القوى الكبيرة التى تجهل الإسلام أو تحقد عليه. هذا التيار القائم الواضح الماضى فى سبيله قد لا ينسب إلى هيئة بذاتها ؛ وذلك لا يهم ، وإنما المهم أنه يبشر بأن موجة المد فى تاريخ هذا الدين قد بدأت ، وأنها مدركة شاطئها المبارك مهما قست الرياح واشتد الزبد ، مدركته بإذن من الله سبق « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

هــذه الأمة :

ولكن الناس إن اختلفوا فى نسبة هذا التيار إلى هيئة أو جماعة ؛ فإنهم لا يختلفون فى نسبته إلى ضمير هذه الأمة الذى لم تنقطع صلته يوما واحدا بالإسلام ، وما هؤلاء العاملون المخلصون الذين لم يخل منهم عصر ولا قطر إلا نبض قلبها الحى ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ... [١] » والحق أن كل من درس تاريخ هذه الأمة ، ثم قدر له أن يتنقل فى مختلف أنحائها وجد من أمرها العجب العاجب ، وأدهشه أن يراها لا تزال تردد أنفاسها ، بل لا تزال زاخرة الوجدان بعواطف الخير ومعانى الحياة ، كأن لم تكن فيها كل هذه الضربات الموجعة من كل نوع ، وكأن لم تكن عليها المؤامرات الرهيبة التى امتلأ بها تاريخ ثلاثة عشر قرنا طوالا ؛ فإن كل ما خبر التاريخ من ضروب الظلم والجبروت والعداء الخسيس بليته هذه الأمة كل بلاء ، وتحملت منه ما كفى قليل منه — فما أرخ

---

(١) رواه النسائى من طريقين .

لنا المؤرخون — لبيد أمما وحضارات كانت ملء السمع والبصر . لقد هب عليها إعصار الفتنة الأولى وكيانها لا يزال غضا طريا، وتعاقبت بعده فتن سببها الهوى والطمع ، وحب الرياسة، وسوء الظن ، والجهل بحقيقة الإسلام ، ودسائس المتربصين له فى الغرب والشرق ، ثم كان الغزو المسلح الذى زلزل جوانب العالم الإسلامى بوحشية لم تر الدنيا لها مثيلا ، فاندفع الأوروبيون فى الحروب الصليبية وما بعدها — من الغرب — يعملون فى المسلمين ذبحا وتقتيلا حتى سبحت خيولهم إلى صدورها فى دماء سبعين ألف مسلم فى حرم المسجد الأقصى يوم فتح القدس[1] ، وحتى استأصلوا شأفة ملايين المسلمين فى صقلية وجنوب فرنسا وسردانية والأندلس ، ورفضوا أن يبقى فى الأندلس مسلم واحد أو قبر مسلم واحد بعد أن عمرها المسلمون ثمانية قرون وعشرين عاما أو يزيد . أما فى البلاد التى لم يقدروا على إبادة مسلميها فقد مضى حكمهم الاستعمارى فيها بهذه الروح الصليبية المسعورة ، يستتر وراء دعاوى الإصلاح الكاذبة والوعود المخنثة الناعمة ومسوح الرهابين.

واندفعت جحافل التتار — من الشرق — وراء جنكيزخان ثم تيمورلنك ، لا تأتى على شىء إلا أهلكته ، حتى شيد تيمور هرما من سبعين ألف جمجمة مسلمة بعد تخريبه مدينة أصبهان فى بلاد فارس .

ولم يكن الغزو الثقافى فى عصر التدوين والقصص ، ثم فى عصر الترجمة والفلسفة ، ثم فى المناهج الدراسية التى سهر الحكم الصليبى على وضعها وحمايتها ومن ورائه مؤتمرات التبشير توجهه وتخرجه وترسم له طرائق القتل البطىء ، لم يكن كل ذلك أهون خطرا من الغزو المسلح .

كان عجيبا أن تغالب الأمة الإسلامية هذه الدواهى جميعا ، وأن تستعصى على المؤامرة العتيقة هذا الاستعصاء ، وأن يكون لها أثناء هذا التاريخ الأليم حركات مقاومة شديدة لم يخل منها مكان ، وأن تنجح هذه الحركات فى تحرير كثير من الأقطار الإسلامية من نير الاستعمار ، وأن يبقى للمسلمين فى عجيج القوى الظالمة الطاغية صوت مسموع — وإن كان لا يزال خافتاً — وأن نرى فيهم على اختلاف أقطارهم هذا التيار الجديد نحو نهضة إسلامية ، وهو تيار يزداد شدة كل يوم .

آثار :

على أن الذى نخشاه على هذا التيار الجديد ، بعد المحنة الطويلة التى ألمت بالإسلام والمسلمين ، أن تغلبه بعض آثارها من حيث لا يدرى ؛ فإن المسلمين عاشوا ذلك الزمن

(١) تعليق الأستاذ شكيب أرسلان رحمه الله على حاضر العالم الإسلامى ، الجزء الأول .

الطويل مغلوبين على أمرهم ، محكومين بقوى تحقد على الإسلام وتعلم أن دولتها قامت على أنقاض دولته ؛ فهى له دائماً بالمرصاد : تشوه وجهه وتطارد دعاته وتقصد إلى استئصال جذوره . وقد قلنا منذ قليل إن الغزو الثقافى المتصل والمناهج الدراسية التى وضعتها الحكومات الاستعمارية بتوجيه هيئات التبشير العالمية ، لم تكن أقل خطراً من الغزو المسلح ، وأول خطرها أنها اقتحمت على المسلمين عقولهم ونفوسهم دون أن يكون للفكرة الإسلامية فى هذه العقول والنفوس معالم واضحة تثبت بها أمام هذا الغزو ، ومقاييس بينة تميز بها الخبيث من الطيب والضار من النافع ؛ فكانت النتيجة تشويش تفكير المسلم وعاطفته وهو تشويش بلغ فى بعض الشباب المثقف الذى ينتسب إلى الإسلام حد الحيرة أو الضلال والإلحاد ، ولم يسلم منه إلا الذين أبقت لهم ظروف حياتهم إيمان العوام — وهو إيمان عميق قوى أساسه براءة فطرتهم وغيبة الشكوك لا الجهل — والقليلون الذين هداهم الله إلى الحق وهيأ لهم أئمة هداة أخذوا بحجزهم وألزموهم محجة الإسلام ، وعزلوا عقولهم وقلوبهم عما سواه ، وهؤلاء هم أقباس الهداية ومراكز القوة الحقيقية فى تاريخ المسلمين .

وقد مكّن لهذا الخطر الداهم : خطر الغزو الثقافى والمناهج الدراسية ، موجةُ الوطنية والقومية التى تمخضت عنها مادية أوروبا وأطلقتها على العالم الإسلامى بهديرها وزبدها ، وأخطر ما فى هذه الموجة أنها تخاطب فى أنفس الناس عاطفة حقيقية ، فالإنسان مفطور على حب وطنه ودياره ، ولكنها تأخذ أنفسهم بهذا الخطاب إلى مكان بعيد : إلى أن تصبح العاطفة الأولى فى النفس « حب الوطن » وقد أمر المسلمون أن يجعلوها دائماً « حب الله » ؛ وإلى أن تصبح المقدسات هى « حدود الوطن ومصالحه » ، وقد أمر المسلمون أن يجعلوها « حدود الله وحرماته ومكارم الأخلاق فى ذاتها حيث كانت » ، ومعنى ذلك أن هذه الموجة الجديدة جاءت تأخذ المسلمين من مكان صادق فى أنفسهم : من حنينهم الفطرى إلى أوطانهم ، لتديرهم بهذه العاطفة الجديدة حول معبود جديد : الوطن ومصالحه ، وهو معبود مادى محدود كما ترى ، وقد أمروا فى قرآنهم أن يحرروا عواطفهم لله وحده « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين » — ويبدو لك خطر هذا الغزو المادى الجديد حين تدرك أثره فى مجتمعات المسلمين ، ويكفيك فى ذلك أن تسأل نفسك : ماذا يصنع القاضى الأهلى إذا تعارض نص قانونى مكتوب بين يديه مع أمر فى كتاب الله ؟ أليس يقدم حكم القانون المكتوب على حكم الله ؟ أوليس معنى ذلك أننا ألهنا المجتمع وما يشرع وعبدناه

من دون الله ؟ وما ذلك أيها المسلم القارىء بالأمر الهين وربنا يقول : « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

كما أن هذا الخطر الماحق لم يأت مع الفكرة الوطنية والقومية عفواً ؛ بل هو نتيجة مقصودة دبرتها مؤامرة خبيثة ، واقرأ فى ذلك كلمات « المسيو شاتليه »[1] من مقاله الافتتاحى فى العدد الخاص بالتبشير من مجلته الفرنسية (العالم الإسلامى) منذ أكثر من أربعين سنة ، حيث يقول : « ولا شك فى أن إرساليات التبشير تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية فبنشرها لها يتحكك الإسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم إسلامى مادى وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها » ثم يقول « ... والتقسيم السياسى الذى طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية ؛ إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية » ويقول : « ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ؛ إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له سوف يفضى — بعد انتشاره فى كل الجهات — إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر » .

ثم استمع إلى العلامة المستشرق الهولندى « هور غرونجه » ، الذى يعد فى الأقلين تعصبا ، يقول فى إحدى محاضراته[2] سنة ١٩١١ عن مسلمى جاوه ، وقد كان إذ ذاك مستشاراً لوزارة الاستعمار الهولندية فى الشئون الإسلامية والعربية : « إن الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها فى السياسة ؛ بل هى رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية ، وإنه لما يؤسف له كون مسلمى تلك الجزائر مقلدين فى دياناتهم وعاداتهم مسلمى مصر وحضرموت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التآليف فى البلاد العربية ، وإنه إلى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية » .

فإذا أضفنا إلى خطر الغزو الثقافى ، وموجة الوطنية والقومية ، الشعور بالظلم والثورة

---

(١) Mr. Le Chatelier; La Revue du Monde Musulman

(٢) تعليق شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٦٦ ، ٦٧ .

على الاستعمار السائدين فى العالم الإسلامى ، وغلبة هذا التحمس السياسى على التيار الإسلامى الجديد وضح لنا معنى الخشية على التيار الجديد ، وأشفقنا جميعاً أن يصير إلى هبَّة فائرة سهلة المداخل ، لا يمسك بعنانها فكرة ثابتة ، ولا تجمع شملها أصول واضحة .

لا بد من دعوة واعية :

ولا يضمن لهذا التيار السلامة من الأخطار التى ذكرنا ، ومن آثارها ، إلا دعوة واعية تذكر المسلمين بحقيقة دينهم ، وبأن ثورة المسلم دائماً ثورة لله والحق ، وليست هبَّة على غير هدى ، وبأن الله حين نزل قرآنا وبعث نبيا ؛ إنما أراد بذلك أن يرسم بنفسه قواعد البناء « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها » ، وأن يقرر لجنده فى الأرض أصول كفاحهم فى سبيله .

ومجلة « المسلمون » وقد ساقها فضل الله فى هذه الفترة من تاريخ المسلمين ، تحاول بهذه الكلمات أن تكتشف — فى نور كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم — ما قرره الإسلام من قواعد وأصول للنهضة التى بدت طلائعها ، ويمكن تركيزها فى أربع :

(١) الإيمان بالله .
(٢) وحدة أحكام الشريعة .
(٣) أخوة الإسلام .
(٤) الجهاد فى سبيل الله .

وسنتناول هذه الأصول تباعا فى الأعداد القادمة إن شاء الله ، والله المستعان ؟

* * *

ألم تر ؟

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا »

(قرآن كريم)

النصوص وتغيير الأحكام بتغير الأزمان

للأستاذ الدكتور محمد معروف الدواليبي

إذا كان النسخ لا يصح إلا من قبل الشارع نفسه ، فهل يصح فى الاجتهاد تغيير ما لم ينسخه الشارع من الأحكام وذلك تبعاً لتغير الأزمان ؟

١ — إن جميع الشرائع من قديمة وحديثة قد أخذت بمبدأ جواز النسخ لما فى الشريعة من بعض الأحكام تبعا لتغير المصلحة فى الأزمان .

غير أنها لم تأخذ بمبدأ السماح للمجتهدين بتغيير حكم من الأحكام ما دام ذلك الحكم باقيا فى الشريعة ، ولم ينسخ من قِبل من له سلطة الاشتراع .

٢ — ولقد تفردت الشريعة الإسلامية من بين جميع تلك الشرائع من قديمة وحديثة بالتمييز ما بين المبدأين أولا ، وبالأخذ بهما ثانيا .

فلقد اعتبرت الشريعة الإسلامية النسخ لبعض الأحكام الشرعية حقا خاصا بمن له سلطة الاشتراع ، وأخذت به .

أما التغيير لحكم لم ينسخ نصه من قبل الشارع فقد أجازته للمجتهدين من قضاة ومفتين ، تبعا لتغير المصالح فى الأزمان أيضا ، وامتازت بذلك على غيرها من الشرائع ، وأعطت فيه درسا بليغا عن مقدار ما تعطيه من حريه للعقول فى الاجتهاد ، ومن تقدير لتحكيم المصالح فى الأحكام . وهكذا أصبح العمل بهذا المبدأ الجليل قاعدة مقررة فى التشريع الإسلامى ، تعلن بأنه « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » ،

٣ — ويمكننا أن نزيد إيضاحا أيضا فنقول إن الفارق ما بين النسخ وبين تغيير الحكم الذى لم ينسخ نصه هو :

أولا : أن النسخ عبارة عن إبطال نفس النص الشرعى السابق بنص شرعى لاحق .

وأما تغيير الحكم الذى لم ينسخ نصه فهو عبارة عن العمل بنفس النص السابق الثابت ، ولكن بحكم جديد مبنى على دليل مستوحى من ظروف النص تبعا لمصلحة زمنية ؛ وذلك بأن يكون فى ظروف النص دليل على أن الحكم الثابت بالنص القائم المعمول به إنما هو حكم مبنى على مصلحة زمنية لا على مصلحة دائمة . وعلى هذا يكون

العمل بحكم النص تابعا للمصلحة الزمنية ؛ فإذا تغيرت المصلحة تغير الحكم معها من غير حاجة لتغيير النص .

ثانيا : أن المبطل للعمل بالنص المنسوخ إنما هو الشارع بموجب نص جديد .

وأما المغير للعمل بالحكم الذى لم ينسخ نصه فإنما هو المجتهد بموجب تغير المصلحة .

٤ — وإن العمل بمبدأ تغير الأحكام بتغير الأزمان ، تؤيده الأصول المتفق عليها وهى :

أن التشريع لا يكون حكيما عادلا إلا إذا كانت أحكامه ملائمة من شرع لهم ، متفقة ومصالحهم ، مراعى فيها عرفهم وحالهم وما تقتضيه بيئتهم .

— وأن التشريع الذى تلائم أحكامه أمة ويتفق ومصالحها قد لا تلائم أحكامه أمة أخرى ويعارض مصالحها .

— بل أحكام التشريع الواحد قد تكون ملائمة لأمة ومتفقة ومصالحها فى حين ، وغير ملائمة لها ولا متفقة ومصالحها فى حين آخر .

وهذه أصول تكاد تكون بديهية غير مفتقرة إلى برهان ، وأصدق شاهد لها نسخ بعض الأحكام الشرعية ببعض فى التشريع [1] .

٥ — غير أن العمل بمبدأ تغير الأحكام بتغير الأزمان ، هو عمل اجتهادى جليل ودقيق ، يتطلب ذوقا حقوقيا ممتازا ، وحسا مرهفا فى تلمس المصلحة للأمة ودفع المفسدة عنها ، وإلا فإن إطلاق العمل به للمجتهدين يكون مدعاة لفوضى فى التشريع والقضاء .

٦ — ولقد كتب فى ذلك العلامة ابن القيم الجوزية فى كتابه إعلام الموقعين فصولا ممتعة [2] وقال تحت عنوان « فصل فى تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والبيئات والعوائد » هذا فصل عظيم النفع جدا . وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة ، أوجب من الحرج والمشقة ، وتكليف ما لا سبيل إليه ما يُعلم أن الشريعة الباهرة التى فى أعلى رتب المصالح لا تأتى به ؛ فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد ، فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل

(١) الخلاصة الأولى من علم أصول الفقه ، للأستاذ عبد الوهاب خلاف الصفحة ١٢٤ مطبعة النصر أولى سنة ١٣٦٤ هـ .

(٢) إعلام الموقعين ، الجزء الثالث ، الصفحة ١ فما بعدها ، إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل .

٧ — ولقد كان فى مقدمة من فتح هذا الباب للمجتهدين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وذلك فى حوادث متعددة كما سنرى بعضها فيما يلى ، وبه أقتدى كبار الأئمة والمجتهدين .

٨ — ولعل اجتهاد عمر رضى الله عنه فى قطع العطاء الذى جعله القرآن الكريم للمؤلفة قلوبهم كان فى مقدمة الأحكام التى قال بها عمر تبعا لتغير المصلحة بتغير الأزمان، رغم أن النص القرآنى لا يزال ثابتا غير منسوخ .

والخبر فى هذا أن الله سبحانه وتعالى فرض فى أول الإسلام ، وعندما كان المسلمون ضعافا ، عطاء يعطى لبعض من يخشى شرهم ويرجى خيرهم ، تألفا لقلوبهم ، وذلك فى جملة من عدّدهم القرآن لينفق عليهم من أموال بيت المال الخاص بالصدقات ، فقال « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله ، وابن السبيل » وهكذا فقد جعل القرآن الكريم « للمؤلفة قلوبهم » فى جملة مصارف الصدقات ، وجعل لهم بعض المخصصات على نحو ما تفعله الدول اليوم فى تخصيص بعض النفقات من ميزانياتها للدعاية السياسية .

غير أن الإسلام لما اشتد ساعده ، وتوطد سلطانه ، رأى عمر رضى الله عنه حرمان المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن .

وليس معنى ذلك أن عمر قد أبطل أو عطل نصا قرآنيا ، ولكنه نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره ، واعتبر إعطاء المؤلفة قلوبهم معللا بظروف زمنية : أى مؤقتة وتلك هى تألفهم واتقاء شرهم عند ما كان الإسلام ضعيفاً ، فلما قويت شوكة الإسلام وتغيرت الظروف الداعية للعطاء ، كان من موجبات النص ومن العمل بعلته أن يمنعوا من هذا العطاء ؛ لأن الإسلام لم يبق فى حاجة لشراء تأييدهم بالمال (١) .

٩ — ومن هذا القبيل أيضاً اجتهاد عمر رضى الله عنه عام المجاعة فى وقف تنفيذ حد السرقة على السارقين وهو قطع اليد ، واكتفاؤه بتعزير السارق عن قطع يده ، معتبرا أن السرقة ربما كان يندفع إليها السارقون حينذاك بدافع الضرورة لا بدافع الإجرام ، وفى ذلك شبهة فى الجرم على الأقل ، والحدود تدرأ بالشبهات (٢) .

---

(١) الحقوق المدنية ، للأستاذ مصطفى الزرقا ، الجزء الأول ، الصفحة ٧٢ مطبعة الجامعة السورية ، دمشق سنة ١٣٦٧ هـ

(٢) نفس المرجع قبله الصفحة ٧٤

وفي هذا كما ترى تغيير لحكم السرقة الثابت بنص القرآن عملا بتغير الظروف التي أحاطت بالسرقة .

١٠ — وكذلك اجتهد عمر في زوجة المفقود حيث حكم بأن لزوجة المفقود ، بعد أن يمضي أربع سنوات على فقدانه ، أن تتزوج بعد أن تقضي عدتها ، وان لم يثبت موت زوجها ؛ وذلك رفعا لضرر بقاء الزوجة معلقة مدى العمر .

وبذلك أخذ الإمام مالك . خلافا لمذهب الحنفية والشافعية الذين قالوا ببقاء الزوجة في عصمة زوجها المفقود حتى تثبت وفاته ، أو تموت أقرانه ؛ لأن الأصل النظري في ذلك اعتبار الاستمرار في حياته حتى يقوم دليل على انقطاعها (١) .

غير أن رأي عمر رضي الله عنه أجدر بالاعتبار لما فيه من دفع ضرر ظاهر عن زوجة المفقود ، وفيه كما نرى إطلاق النكاح لها خلافا لظواهر نصوص الشريعة التي أخذ بها بقية الأئمة ، وماهذا إلا تغيير للأحكام تبعاً للأحوال . وذلك تقديراً لظروف خاصة لا بد من تقديرها رفعا للضرر والحرج ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » . وقال الله سبحانه وتعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وليس في ذلك — في الحقيقة — تعطيل للنصوص ، بل إعمال لها على ضوء المصلحة والظروف .

١١ — ولعل أبرز الأمثلة على تغيير الاحكام تبعا لتغير الأزمان هو اجتهاد عمر رضي الله عنه في منع تقسيم أراضي سواد العراق وأراضي مصر والشام على المجاهدين الفاتحين الذين طالبوا بتقسيمها بينهم كما تقسم الغنائم الحربية بعد إخراج خمسها لبيت المال ، محتجين بظواهر نصوص القرآن والسنة في حقوق المجاهدين الفاتحين في الغنيمة .

ولقد ذهب عمر في ذلك إلى خلاف رأي المجاهدين ، وجمع الناس واستشارهم فكان رأي عامتهم تقسيم الأراضي بين الغانمين إلا عليا وعثمان وطلحة ومعاذ بن جبل فقد كان رأيهم كرأي عمر ، ولقد قال معاذ لعمر : « إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدا — أي يكون لهم في الإسلام بلاء حسن — وهم لا يجدون شيئا ، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم (٢) » .

---

(١) نفس المرجع السابق ، الصفحة ٤١

(٢) كتاب الحقوق المدنية السابق ، للأستاذ الزرقا الجزء الأول ، الصفحة ٧٤ — ٧٦ ، وكتاب الأموال لابن سلام ، الصفحة ٥٩ ، الفقرة ١٥٢ ، مطبعة حجازي مصر سنة ١٣٥٣هـ .

ويعجبنى من قول معاذ رضى الله عنه « إنك إن قسمتها صار الريع العظيم فى أيدى هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل أو المرأة ! ثم يأتى من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدا ، وهم لا يجدون شيئا ! ! » فما أبدع ما يقول !

وكأنه ينكر على الناس ما ينكر الاشتراكيون اليوم على الاقطاعيين ، من أن تصبح أراضى الله الواسعة فى يد شخص واحد فقط من رجل أو امرأة ، يستثمر بها جهد العدد الكبير من العاملين الفلاحين ، لينعم بذلك وحده دون بقية الناس أجمعين !

وقد مكثوا يتناقشون أياماً ، فيحتج القائلون بالتقسيم بعمل النبى عليه الصلاة والسلام فى قسمة أراضى خيبر بين الفاتحين وبقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » لأن الآية إنما تعرضت لإخراج الخمس فقط من أيدى الفاتحين وإلحاقه ببيت المال ليصرف من ذلك على أصحاب الحقوق ، وأما الأخماس الأربعة الباقية فقد سكتت عنها الآية ، وفى ذلك إقرار لبقائها فى أيدى الفاتحين ، وكان عبد الرحمن بن عوف يقول لعمر : ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم : أى مما أعطاه الله لهم من أعدائهم .

وأما عمر فكان يقول جواباً على ذلك لعبد الرحمن بن عوف : ما هو إلا ما تقول ولست أرى ذلك . والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل . بل عسى أن يكون كَلاًّ على المسلمين ؟ فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ .

وما زال عمر كذلك يستشير ويناقش ، فيحتج الناس للتقسيم بظواهر النصوص ، ويحتج عمر لعدم التقسيم بمصلحة المسلمين ؛ وكأنه يميز بين ما فعله النبى عليه الصلاة والسلام فى أراضى خيبر الصغيرة فى أول الإسلام مما تقتضيه مصلحة المسلمين حينذاك ولا يتنافى معها ، وبين أراضى سواد العراق ومصر والشام ، فما لو طبق فيها ما فعله رسوله الله فى أراضى خيبر لضاعت على المسلمين مصلحتهم .

وما زال بهم كذلك حتى جاء أخيراً يقول : « وجدت الحجة عليهم بآخر آية الحشر » حيث عدد الله سبحانه فيها من يستحقون الفىء فقال: « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء . . . . » أى لا تكون الغنيمة متداولة بين الأغنياء دون الفقراء ، إلى أن قال الله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم . . . . »

وإلى أن قال أيضا : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ... » وإلى أن ختم فقال « والذين جاءوا من بعدهم » فقال عمر « ما أرى هذه الآية إلا عمت الخلق كلهم حتى الراعى بكداء » وقال لهم « تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شىء ! فما لمن بعدكم ؟ ولولا آخر الناس ما فتحتْ قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر (١) » .

وهكذا أقر عمر حبس الأرضين عن قسمتها بين الفاتحين ، وتركها فى يد أهلها العاملين عليها يؤدون عنها الخراج لينفق على مصالح عامة المسلمين ؛ وأجمع معه المسلمون بعد ذلك .

ومن الواضح أن هـذا التصرف الحكيم من عمر رضى الله عنه على خلاف ماتصرف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن تعطيلا لما جاء عن النبى عليه السلام من سنة ثابتة ، وإنما كان تمسكا بها بدلائل النصوص الأخرى تبعاً للمصالح العامة ، فإذا قسم رسول الله الغنيمة من الأراضى بين المسلمين حينذاك من غير أن يبقى شيئاً لمن يأتى بعدهم ؛ فلأن المصلحة الزمنية كانت مقتضية لذلك فى تلك الظروف ، وخاصة ليعوِّض على فقراء المهاجرين من مكة الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ولئن لم يقسم عمر ؛ فلأن المصلحة الزمنية أيضاً كما شرحها بنفسه كانت تقتضى ذلك .

ولهذا قال القاضى أبو يوسف « والذى رأى عمر رضى الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عند ما عرَّفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقا من الله ، كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ؛ وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ؛ لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد » .

١٢ — ومما أحدثه أيضاً عمر رضى الله عنه تأييداً لقاعدة « تغير الأحكام بتغير الأزمان » هو اتباعه الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ، مع أن المطلق فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن خليفته أبى بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، كان إذا جمع الطلقات الثلاثة بفم واحد جعلت واحدة كما ثبت ذلك فى الخبر الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه ؛ وقد قال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؛ فأمضاه عليهم (٢) .

---

(١) كتاب الحقوق المدنية السابق للأستاذ الزرقا الصفحة ٧٦ .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم الجوزية الجزء الثالث . الصفحة ٢٤ إدارة الطباعة المنيرية مصر

وقال ابن القيم الجوزية فى ذلك [١] : « ولكن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه رأى أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق ، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم . . . فإذا علموا ذلك كفوا عن الطلاق ، فرأى عمر أن هذا مصلحة لهم فى زمانه ، ورأى أن ما كان عليه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد الصديق وصدراً من خلافته كان الأليق بهم ؛ لأنهم لم يتتابعوا فيه وكانوا يتقون الله فى الطلاق . . . » إلى أن قال : « فهذا مما تغيرت به الفتوى لتغير الزمان . وعلم الصحابة رضى الله عنهم حسن سياسة عمر وتأديبه لرعيته فى ذلك فوافقوه على ما ألزم به ، وصرحوا لمن استفتاهم بذلك » [٢] .

غير أن ابن القيم نفسه عاد فأبدى ملاحظاته بالنسبة لزمنه رغبة فى الرجوع بالحكم إلى ما كان عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الزمن قد تغير أيضا ، وأصبح إيقاع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة مدعاة لفتح باب « التحليل » الذى كان مسدوداً على عهد الصحابة . وقال بأن العقوبة إذا تضمنت مفسدة أكثر من الفعل المعاقب عليه كان تركها أحب إلى الله ورسوله [٣] .

وقال ابن تيمية : « ولو رأى عمر عبث المسلمين فى تحليل المبانة لمطلقها ثلاثاً لعاد إلى ما كان عليه الأمر فى عهد الرسول [٤] » .

وأن ما أبداه ابن القيم وابن تيمية من الملاحظات القيمة ، قد كان مدعاة لعودة المحاكم الشرعية فى مصر الآن إلى ما كان عليه الحكم فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام [٥] ، عملا أيضا بقاعدة « تغير الأحكام بتغير الأزمان » .

١٤ — وقد أخذ معاوية رضى الله عنه أيضاً بهذا الرأى فيما يتعلق بصدقة الفطر . فقد روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : « كنا نعطيها فى زمان النبى صلى الله عليه صاعا من طعام ، وكان طعامنا الشعير والتمر والزبيب والأقط — وهو الجبن المتخذ من اللبن الحامض — حتى قدم علينا معاوية حاجا أو معتمراً ، فكلم الناس على المنبر ،

---

(١) نفس المرجع قبله الصفحه ٢٩

(٢ ، ٣) نفس المرجع الصفحه ٣٠ ، ٤٢

(٤) الحلقه الأولى من علم أصول الفقه للأستاذ عبد الوهاب خلاف الصفحه ١٣٠ مطبعة النصر أولى مصر سنه ١٣٦٤ هـ .

(٥) نفس المرجع قبله .

ومما كلمهم به : إنى أرى مدّين من سمراء الشام — أى حنطتها — تعدل صاعا من تمر ، فأخذ الناس بذلك (١) .

ومن المعروف أن إيجاب صاع من هذه الأنواع من الطعام مبنى على أن قيمتها متساوية أو متقاربة ، وأن تعادل هذه القيم أو تقاربها مما يختلف باختلاف الأزمان والبيئات ، وأن أقوات الناس ليست قاصرة على هذه الأنواع بل قد يكون الغالب فى قوتها غيرها مما يعادلها أو مما يقل عنها قيمة أو يزيد ، وهذا هو ما أخذ به معاوية ، إذ أنه أعتبر نصف صاع من حنطة الشام : أى مدّين منها ؛ يعدل صاعا من تمر فى ذلك الزمن . وقد أخذ الناس برأيه . وفى ذلك تأييد أيضا لقاعدة « تغير الأحكام بتغير الأزمان » فإن معاوية لم يوجب على المكلفين صاعا من حنطة ، كما أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعا من شعير ، وإنما أخذ بالقيمة المعادلة وأوجب نصف ذلك القدر من الحنطة ، ولم يكن فى ذلك مخالفا للنص ، بل عاملا بالنص تبعا لتغيرات الأزمان .

١٤ — وكذلك أخذ بهذا المبدأ كبار الأئمة والمجتهدين ممن جاء بعد الصحابة رضى الله عنهم .

وديعـــة

سئل أعرابى يرعى ماشية : لمن هذه الماشية ؟

قال : لله عندى !

---

(١) الحلقة الأولى من علم أصول الفقه المشار إليها سابقاً للأستاذ عبد الوهاب خلاف الصفحة ١٥٧

التشريع الجنائى الإسلامى

للأستاذ عبد القادر عودة

(٦)

عقوبة المحصن

إذا زنى المحصن فعليه عقوبتان هما : الرجم والجلد

١ — الرجم : فأما الرجم فعقوبة معترف بها من جميع الفقهاء ، إلا طائفة الأزارقة من الخوارج ؛ لأنهم لايقبلون الأخبار إذا لم تكن فى حد التواتر . وعندهم أن عقوبة المحصن وغير المحصن هى الجلد ، مستندين فى ذلك إلى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

والرجم هو قتل الزانى رمياً بالحجارة وما أشبهها .

والأصل فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله ؛ فأما قوله فهو : « خذوا عنى فقد جعل الله لهن سبيلا . البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » . وقوله : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » .

وأما فعله صلى الله عليه وسلم فقد رجم ماعز والغامدية ، ورجم يهوديين زنيا ؛ فالرجم إذاً سنة فعلية وسنة قولية فى وقت واحد .

٢ — الجلد : والقائلون بالرجم وهم جمهور الأمة مختلفون فيما إذا كانت عقوبة المحصن هى الرجم وحده ، أو هى الرجم والجلد معا .

وحجة القائلين بالجلد مع الرجم أن القرآن جعل عقوبة الزنا الأساسية الجلد وذلك قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » ، ثم جاءت السنة بالرجم فى حق الثيب ، والتغريب فى حق البكر ؛ فوجب الجمع بينهما . وقد فعل ذلك سيدنا على بن أبى طالب حيث جلد شراحة يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة وقال : جلدتها

بكتاب الله ، ورجمها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد صرّح النبي فى الحديث المروى عن عبادة بالجمع بين الجلد والرجم فى قوله « والثيب بالثيب الجلد والرجم » وهذا الصريح الثابت بيقين لا يترك إلا بمثله . وإذا كان نص الحديث قد جعل للبكر عقوبتين الجلد والتغريب ، وللمحصن عقوبتين الجلد والرجم ، وقد سلمنا بعقوبتى البكر ؛ فقد وجب التسليم بعقوبتى الثيب ، فيجلد أولا ثم يرجم ثانيا . وبهذا الرأى قال بعض الفقهاء منهم الحسن وإسحاق وابن المنذر ، وعليه مذهب الظاهريين والشيعة الزيدية ، وهو رواية فى مذهب أحمد(١) .

وحجة القائلين بأن العقوبة هى الرجم دون الجلد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا والغامدية ورجم يهوديين وامرأة من عامر من الأزد ، ولم يرد عنه أنه جلد واحداً منهم ، وأن الرسول قال فى حادث العسيف « أغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » ولم يأمر بجلدها . وكان هذا آخر الأمرين من رسول الله فوجب تقديمه . هذا من جهة النصوص ، أما من جهة المعنى فإن القاعدة العامة أن الحد الأصغر ينطوى فى الحد الأكبر ؛ لأن الحد إنما وضع للزجر ، ولا تأثير للزجر بالضرب مع الرجم . وأصحاب هذا الرأى هم جمهور الفقهاء وهم يسلمون بحديث عبادة ، ولكنهم يعتبرون الجلد منسوخا أو داخلا فى الرجم . ومن أصحاب هذا الرأى مالك وأبو حنيفة والشافعى ، وهو رواية عن أحمد(٢) .

وهناك رأى ثالث يرى أصحابه أن الثيب إن كان شيخا جلد ورجم ، فإن كان شابا رجم ولم يجلد كما روى عن أبى ذر قال : « الشيخان يجلدان ويرجمان والثيبان يرجمان والبكران يجلدان وينفيان » وعن أبى بن كعب ومسروق مثل هذا(٣) . ولعل أساس هذا الرأى أن زنا الشيخ مذموم ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعامل مستكبر »

٣ — **حالات تختلف على عقوبتها** : وهنـاك حالات بعينها تختلف على العقوبة الواجبة فيها ، ويرجع هذا إما إلى الاختلاف على تكييف هـذه الحالات ، وإما إلى الاختلاف على النصوص التى تحكمها . ويمكن حصر هذه الحالات فيما يأتى :

---

(١) بداية المجتهد الثانى ص ٣٦٣ — المغنى العاشر ص ١٢٤ — المحلى حادى عشر ص ٢٣٣ وما بعدها — شرح الأزهار رابع ص ٣٤٤

(٢) بداية المجتهد ثان ص ٣٦٣ — شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢ — شرح فتح القدير رابع ص ١٣٣ — أسنى المطالب رابع ص ١٢٨ المغنى عاشر ص ١٢٥

(٣) المحلى حادى عشر ص ٢٣٤

٤ — عقوبة اللواط : يترتب على اعتبار اللواط زنا أن يعاقب عليه بعقوبة الزنا . ولـكن القائلين باعتبار اللواط زنا اختلفوا فى عقوبته ؛ فقال مالك إن عقوبة اللواط الرجم مطلقا سواء كان الفاعل والمفعول به محصنين أم غير محصنين(١) .

وفى مذهب الشافعى وأحمد ثلاثة آراء :

أولها : أن اللواط حكمه حكم الزنا ، فيعاقب اللائط والملوط به بعقوبة الزنا ؛ فمن كان محصناً رجم ، ومن كان غير محصن جلد وغرب . وحجة أصحاب هذا الرأى مارواه أبو موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان » ولأنه حد يجب بالوطء فاختلف فيه البكر والثيب .

وثانيها : أن اللائط هو الذى يرجم أما الملوط به فلا يرجم ، وإنما يجلد ويغرب فى كل الأحوال سواء كان ذكراً أو أنثى محصناً أو غير محصن ؛ لأن الإحصان جعل للقبل وهو يؤتَى فى الدبر ، ولا يتصور فى الدبر إحصان . وعلى هذا فالملوط به إذا اعتبر فعله زنا فهو زنا من غير محصن ما دام الإحصان لم يجعل للدبر .

وثالثها : أن عقوبة اللائط والملوط به القتل فى كل حال : أى سواء كان محصنا أو غير محصن وفى قتله رأيان : رأى يرى القتل رجماً ، ورأى يرى القتل بالسيف . وحجة القائلين بالقتل ما رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وقد كان إطلاق القتل فى الحديث حجة لمن قال بأن القتل يكون بالسيف فى كل حال ، وفسر الآخرون القتل بالرجم لأنه وطء يجب به الحد ؛ فكان القتل بالرجم كما هو الحال فى الزنا (٢)

ويرى أبو حنيفة أن اللواط ليس زنا فلا يعاقب عليه بعقوبة الزنا ، وإنما يعاقب عليه بعقوبة تعزيرية ، ولا مانع عند أبى حنيفة من أن يحبس حتى يموت أو يتوب ، وإذا اعتاد اللواطة يقتل سياسة . أما أبو يوسف ومحمد فيريان اللواط زنا يعاقب عليه بعقوبة الزنا فيجلد غير المحصن ويرجم المحصن(٣) .

وفى مذهب الشيعة الزيدية رأيان : أحدهما أن حكم اللواط هو حكم الزنا ؛ فيرجم

---

(١) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢ — مواهب الجليل سادس ص ٢٩٦

(٢) نهاية المحتاج سابع ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ — أسنى المطالب رابع ص ١٢٦ — المهذب ثان ص ٢٨٥ المغنى عاشر ص ١٦١ — الإقناع رابع ص ٢٥٣ .

(٣) شرح فتح القدير رابع ص ١٥٠ — بدائع الصنائع سابع ص ٣٤

المحصن ويجلد غير المحصن ، والثانى أن يقتل الفاعل والمفعول به فى كل حال (١)
أما الظاهريون فيرون اللواط شيئاً آخر غير الزنافهو معصية يُعزر عليها (٢) .

٥ — عقوبة وطء المحارم : يرى جمهور الفقهاء أن من وطأ محرما عوقب بعقوبة الزانى ؛ فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرّب . ولكن بعضهم يرى ؛ وهو رأى لأحمد أن من وطأ ذات محرم حده القتل فى كل حال لما رواه السراء قال « لقيت عمى ومعه الراية فقلت إلى أين تريد ، قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه ، وآخذ ماله » ولما رواه الجورجانى وابن ماجة بإسنادهما عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وقع على ذات محرم فاقتلوه »(٣). ويرى الظاهريون أن من وقع على امرأة أبيه بعقد أوبغير عقد فإنه يقتل محصنا كان أو غير محصن ، ويخمس ماله ، وسواء كانت أمه أو غير أمه ، دخل بها أبوه أو لم يدخل بها . وأما من وقع على غير امرأة أبيه من سائر ذوات محارمه بصهر أو رضاع فهو زان وعليه حد الزنا فقط (٤) .

٦ — شرط الرجم : رأينا فيما سبق أن الشريعة تفرق فى العقوبة بين المحصن وغير المحصن ، وتعاقب الأول بالرجم دون الثانى ، ومعنى هذا أن الشريعة تجعل الإحصان شرطا للرجم فإذا انعدم الإحصان امتنع الرجم . وللاحصان معنى خاص سنتكلم عنه فيما يلى .

٧ — الإحصان: الإحصان لغة معناه الدخول فى الحصن أو المنع قال تعالى « ولتحصنكم من بأسكم » ويقال أحصن إذا دخل فى الحصن .

وللاحصان فى لسان الشارع أكثر من معنى ؛ فقد أطلق فى استعمال الشارع بمعنى الإسلام ، وبمعنى العقل ، وبمعنى الحرية ، وبمعنى التزويج ، وبمعنى الإصابة فى النكاح وبمعنى العفة .

والإحصان نوعان : إحصان الرجم ، وإحصان القذف . والمقصود هنا هو إحصان الرجم . وإحصان الرجم شرعا هو عبارة عن اجتماع صفات اعتبرها الشرع لوجوب الرجم ، أو هو مجموعة من الشروط إذا توفرت فى الزانى كان عقابه الرجم بدلا من الجلد .

ولما كان الإحصان شرطا فى الرجم وهو فى الوقت ذاته مجموعة شروط تكوّن هيئة

---

(١) شرح الأزهار رابع ص ٣٣٦ (٢) المحلى حادى عشر ص ٢٨٥
(٣) المغنى عاشر ص ١٥٣ (٤) المحلى حادى عشر ص ٢٥٦

واحدة ، أو مجموعة أجزاء لعلة واحدة ؛ لأن كل واحد من هذه المجموعة يعتبر بذاته شرطا أو علة لوجوب الرجم .

٨ — **شروط الإحصان** : اتفق الفقهاء على بعض شروط الإحصان ، واختلفوا على البعض الآخر . وسنبين فيما يلى شروط الإحصان سواء منها ما اتفق عليه ، وما اختُلف فيه .

أولا : الوطء فى نكاح صحيح : يشترط لقيام الإحصان أن يكون هناك وطء فى نكاح صحيح، وأن يكون الوطء فى القبل لقوله عليه السلام : « والثيب بالثيب الجلد والرجم » والثيابة تحصل بالوطء فى القبل .

ولا خلاف فى أن عقد النكاح الخالى من الوطء لا يحصل به إحصان ، ولو حصلت فيه خلوة صحيحة[٢] ، أو وطء فيما دون الفرج ، أو وطء فى الدبر ؛ لأن كل هذا لا تعتبر به المرأة ثيبا ، ولا تخرج عن حد الأبكار الذين حدهم جلد مائة وتغريب عام .

والوطء الذى يؤدى للثيابة هو الإيلاج فى القبل على وجه يوجب الغسل ، أو هو تغييب الحشفة أو مثلها فى القبل سواء أنزل أو لم ينزل . ولا يكفى مثل هذا الوطء وحده لوجود الإحصان بل يجب أن يكون الوطء فى نكاح ؛ لأن النكاح هو الإحصان لقوله تعالى : « والمحصنات من النساء » يعنى المتزوجات ، فإن كان الوطء فى غير نكاح كالزنا ، ووطء الشبهة فلا يصير به الواطىء محصنا دون خلاف .

ويشترط فى النكاح أن يكون صحيحا ؛ فإن كان فاسدا فإن الوطء فيه لا يحصن[٣] كما يرى جمهور الفقهاء .

ويشترط إذا كان الوطء فى نكاح صحيح أن لا يكون وطأ محرما كالوطء فى الحيض أو الإحرام ؛ فإن الوطء الذى يحرمه الشارع لا يحصن ولو كان فى نكاح صحيح[٤] .

---

(١) شرح فتح القدير رابع ص ١٣١ — بدائع الصنائع سابع ص ٣٧ — المغنى عاشر ص ١٢٦ — بداية المجتهد ثان ص ٣٦٤ — شرح الأزهار رابع ص ٣٤٢

(٢) يرى الهادى من فقهاء الزيدية اعتبار الإحصان بالخلوة ، ولكنهم يتأولون رأيه ويقولون إنه أراد الخلوة مع الدخول — شرح الأزهار حـ ٤ ص ٣٤٣

(٣) المغنى حـ ١٠ ص ١٢٦ — الإقناع رابع ص ٢٥٠ — المهذب ثان ص ٢٨٣ — أسنى المطالب رابع ص ١٢٨ — شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢ — شرح فتح القدير رابع ص ١٣٠ — ١٣٣ — شرح الأزهار رابع ص ٣٤٣

(٤) أسنى المطالب رابع ص ١٢٨ — شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢

ثانيا : البلوغ والعقل : وهما شرطا الأهلية للعقوبة ، كما أنهما لازمان فى كل جريمة . ويجب توفرهما فى المحصن وغير المحصن وقت ارتكاب الجريمة طبقا للقواعد العامة ، إلا أنهما اشترطا أيضا فى الإحصان ؛ لإن اشتراطهما وقت ارتكاب الجريمة لا يغنى عن اشتراطهما فى الإحصان ، فيشترط إذن أن يكون الوطء الذى يحصن حاصلا من بالغ عاقل ، فإذا حصل الوطء من صبى أو مجنون ثم بلغ أو عقل بعد الوطء لم يكن بالوطء السابق محصنا ، وإذا زنى عوقب على أنه غير محصن[1] .

على أن أصحاب الشافعى يرون — ورأيهم مرجوح — أن الواطىء يصير محصنا بالوطء قبل البلوغ وأثناء الجنون ؛ فلو بلغ أو أفاق فزنى رجم دون حاجة إلى حصول وطء جديد بعد البلوغ والإفاقة . وحجتهم أن الوطء قبل البلوغ وأثناء الجنون وطء مباح فيجب أن يثبت به الإحصان ؛ لأنه إذا صح النكاح قبل البلوغ وأثناء الجنون فإن الوطء يصح تبعا له .

ويرد على ذلك بأن الرجم عقوبة الثيب ولو اعتبرت الثيوبة حاصلة بالوطء قبل البلوغ وأثناء الجنون لوجب رجم الصغير والمجنون . وهذا مالا يقول به أحد . كذلك فإن هناك فرقا بين الإحصان والإحلال وكل إحلال لا يترتب عليه إحصان ، كما أن الإحصان شرط عقوبة الرجم ولو كان الإحلال يقوم مقام الإحصان لما كان ثمة ما يدعو لاشتراطه[2] .

ثالثا : أن يوجد الكمال فيهما جميعا حال الوطء : أو بتعبير آخر ينبغى أن تتوفر شروط الإحصان فى الواطىء والموطوء حال الوطء الذى يترتب عليه الإحصان فيطأ مثلا الرجل العاقل امرأة عاقلة ؛ فإذا لم تتوفر هذه الشروط فى أحدهما فهما معاً غير محصنين ، فإذا كان الجانى متزوجا ودخل بزوجته فى نكاح صحيح ولكنها مجنونة أو صغيرة فالجانى غير محصن ولو كان هو نفسه بالغا عاقلا ، وهذا هو رأى أبى حنيفة وأحمد[3] .

ولكن مالكا لا يشترط توفر شروط الإحصان فى الزوجين لإحصانهما معاً ، وعنده أنه يكفى أن تتوفر شروط الإحصان فى أحد الزوجين ليكون محصنا بغض

---

(١) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢ — شرح فتح القدير رابع ص ١٣٠ ، ١٣١ — أسنى المطالب رابع ص ١٢٨ — المغنى عاشر ص ١٢٨ — شرح الأزهار رابع ص ٣٤٣

(٢) المهذب ثان ص ٢٨٣ — المغنى عاشر ص ١٢٨

(٣) شرح فتح القدير رابع ص ١٣٠ — ١٣٣ — المغنى عاشر ص ١٢٨

النظر عما إذا كان الزوج الآخر تتوفر فيه هذه الشروط أم لا ؛ فشرط تحصين الذكر عنده أن تتوفر فيه شروط الإحصان مع إطاقة موطوءته له ولو كانت صغيرة أو مجنونة ، وتتحصن الأنثى عند مالك بتوفر الإحصان فيها ، وبلوغ واطئها ولو كان مجنونا[1] .

وفى مذهب الشافعى رأيان أحدهما يتفق مع رأى أبى حنيفة وأحمد ، وثانيهما يتفق مع مذهب مالك[2].

وفى مذهب الشيعة الزيدية نفس الرأيين ، ثم رأى ثالث يرى أن المجنون لا يحصن العاقل بأى حال[3] وإن أحصن البالغُ من لم يبلغ .

والذين يشترطون اجتماع شروط الإحصان فى الزوجين يعللون ذلك بأن اجتماع هذه الصفات فى الزوجين يشعر بكمال حالهما وبكمال اقتضاء الشهوة من الجانبين ، وتخلف أحد هذه الشروط أو بعضها يشعر بالنقص ، فاقتضاء الشهوة من المجنونة والصغيرة قاصر ولا يبلغ بالرجل حدّ الكمال . والمحصن لا تغلظ له العقوبة إلا على أساس أنه فى حال من الكمال تغنيه عن التفكير فى الحرام[4] .

رابعاً : الإسلام : ويشترط أبو حنيفة ومالك الإسلام شرطا من شروط الإحصان . وحجتهما حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لما استشاره حذيفة فى زواج كتابية : « دعها فإنها لا تحصنك » . ولكن الشافعى وأحمد لا يريان الإسلام شرطا من شروط الإحصان ، ويوافقهما أبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة . وحجتهم أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين ؛ ولو كان الإسلام شرطا فى الإحصان لما رجمهما ، فضلا عن أن الأديان عامة تحرم الزنا كما يحرمه الإسلام . ويتفق المذهب الظاهرى مع مذهب الشافعى وأحمد فى هذه الوجهة . أما المذهب الزيدى ففيه الرأيان وأرجحهما مايقول به الشافعى وأحمد[5] .

---

(١) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢

(٢) المهذب ثان ص ٢٨٣ — أسنى المطالب رابع ص ١٢٨

(٣) شرح الأزهار رابع ص ٣٤٣ ، ٣٤٤

(٤) شرح فتح القدير رابع ص ١٣١ — المغنى عاشر ص ١٢٨ .

(٥) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٢ — شرح فتح القدير رابع ص ١٣٣ — أسنى المطالب رابع ص ١٢٨ المغنى عاشر ص ١٢٩ — المحلى حادى عشر ص ١٥٨ وما بعدها — شرح الأزهار رابع ص ٣٤٤

ويترتب على هذا الخلاف أن المسلم المتزوج من كتابية لايرجم إذا زنا فى رأى أبى حنيفة ؛ لأنه لايعتبر محصنا إذ الكتابية لاتحصن المسلم . وكان يجب أن يكون هذا هو الحكم عند مالك لولا أنه لايشترط الكمال فى الزوجين ، ومن ثم فإن الكتابية تحصن المسلم عنده . وعلى هذا إذا زنا المسلم المتزوج من كتابية فإنه يرجم عند مالك كما يرجم عند الشافعى وأحمد والظاهريين وبعض الزيديين ؛ لأنهم لايعتبرون الإسلام شرطا من شروط الإحصان .

٩ — *زنا المحصن بغير محصن* : بيَّنا فيما سبق شروط الإحصان ما اتفق عليه منها وما اختلف فيه ، وإذا كان بعض الفقهاء يوجب توفر هذه الشروط فى كل من الزوجين لاعتبار أحدهما محصنا ؛ فإن الفقهاء جميعا لايشترطون إحصان كل من الزانيين لوجوب الرجم على أحدهما ، ويرون رجم من توفرت فيه شروط الإحصان من الزانيين ، فإذا كان أحد الزانيين محصنا والثانى غير محصن ؛ رجم المحصن وجلد غير المحصن .

منطق المؤمنين

قيل لسيدنا يوسف عليه السلام : مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟

قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين !

في الفقه الإسلامي

موضوع العقد

للدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

موضوع العقد ، أو محله كما يعبر الفقهاء ، هو الشيء الذي يرد عليه العقد ، وبه تتعلق أحكامه وآثاره ؛ ففي البيع والشراء ، موضوع العقد هو الشيء المبيع ؛ وفي عقد الإجارة ، موضوعه هو منفعة الدار ، أو الأرض المستأجرة ، والعمل الذي يؤديه الشخص المستأجر ؛ وفي الزواج ، موضوع العقد هو المرأة نفسها ؛ وفي المزارعة ، موضوع العقد هو عمل الزارع ؛ وهكذا ، إلى سائر ضروب العقود .

وقد يكون شيء ما صالحا بطبيعته لأن يكون موضوع عقد من العقود ، ولكن يعرض له شرعا أو عرفا ما يجعله غير صالح لأن يكون موضوعا أو محلا له ؛ فالخمر بطبيعتها ضرب من المال ، فهي صالحة لأن تكون موضوعا لعقد البيع ، إلا أن الشرع الإسلامي منع من ذلك حين حرّم على المسلم تمليكها بالبيع وامتلاكها بالشراء ، والمرأة ، باعتبارها امرأة ، صالحة طبعا لأن تكون موضوعا لعقد الزواج ، إلا أنها لا تصلح شرعا لذلك بالنسبة لأخيها مثلا من النسب أو الرضاع .

ولهذا أو ذاك ، نجد الخمر صالحة لأن تكون محلا لعقد البيع بالنسبة لغير المسلم ؛ كما نرى هذه المرأة صالحة شرعا لأن تكون محلا لعقد الزواج لمن لا تربطه بها رابطة من النسب أو الرضاع تجعل الزواج بينهما محرما ؛ تحريماً مؤبداً كما في الصورة التي ذكرناها ، أو مؤقتا كما إذا كانت زوجة أو معتدّة لرجل آخر .

من أجل ذلك ، نرى الفقهاء والمشرعين عُنوا ببيان الشروط التي يجب أن تتوفر في هذا الشيء أو ذاك حتى يصلح أن يكون موضوع عقد من العقود .

ولن نتعرض هنا إلا للأصول التي يجب توفرها بصفة عامة في موضوع العقد أيا كان نوعه ، دون الدخول في التفصيل الذي يتناول كل عقد على حدة ، وسنتناول

هذا من وجهة مذهب الأحناف [1] مع الإشارة للمذاهب الأخرى فى النواحى الهامة .

يرى الفقهاء أنه يجب أن يتوفر فى موضوع العقد الشروط الآتية :

(ا) أن يكون موجودا حين صدور العقد ، فلا يصح أن يكون المعدوم وقت العقد موضوعا أو محلا له عند كثير من الفقهاء ومنهم الأحناف ؛ إذ من غير الممكن ، ولا من المعقول أن يتعلق حكم العقد وآثاره والتزاماته بأمر معدوم . ومن ثم ، تراهم يجيزون من باب الاستحسان عقود الإجارة ، والسلم ، والاستصناع ، ونحوها . وكل هذا استثناء من هذه القاعدة العامة ، ما دام موضوع كل منها لا يكون موجوداً عادة عند صدور العقد تيسيرا على الناس فى معاملاتهم .

وعلى هذا ، لا يجوز بيع الثمر والزرع قبل ظهوره لأنه معدوم ، ولا اللبن قبل حلبه ، لأنه قد يكون غير موجود لاحتمال انتفاخ الضرع عن ورم مثلا ؛ كما لا يجوز على هذا المذهب كثير من العقود التى موضوعها القطن فى البورصة .

أما الإمام مالك ، رضى عنه ، فقد توسع فى هذه الناحية : إنه ذهب إلى جواز أن يكون محل العقد محتمل الوجود ، وذلك فيما يختص بعقود التبرعات كالهبة والوقف؛ فلكل من الواقف والواهب أن يقف أو يهب شيئا غير موجود وقت صدور العقد منه ، ثم يسلمه متى صار موجودا . كما ذهب فيما يوجد من الخُضر والفاكهة بعضه بعد بعض إلى جواز أن يكون ما لم يظهر من ذلك بعد موضوعا للعقد متى ظهرت البواكير ، « لأن فيه ضرورة ؛ لأنه لا يظهر الكل دفعة بل على التعاقب بعضها بعد بعض ، فلو لم يجز بيع الكل عند ظهور البعض لوقع الناس فى الحرج » [2] .

وإذا كان مذهب مالك يشترط أن يكون محل العقد فى الهبة والوقف محتمل الوجود ، لا أن يكون موجودا فعلا وقت العقد ؛ لأنه ما على المحسن من سبيل ، فعلى الواهب والواقف أن يسلم ما وهبه ووقفه حين وجوده ، ولا ضرر من العقد عليه قبل وجوده . إذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان يصح بيع الخضر والفاكهة متى ظهر منها ما يستدل به على ما لم يظهر [3] ، فليس معنى هذا كله أنه يجيز العقد على المعدوم بصفة

---

(١) نستأذن حضرة الباحث الفاضل فى لفت نظر القارىء الكريم إلى أنه إنما يؤخذ برأى دون آخر من آراء المذاهب لما يستند إليه من دليل شرعى من أدلة الأحكام . ومرجع الأدلة جميعاً كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ويلتزم المسلم بالحكم المستمد من الدليل على أنه حكم الله فى المسألة .

« التحرير »

(٢) بدائع الصنائع لعلاء الدين الكاسانى المتوفى عام ٥٨٧ هـ ، جـ ٥ : ١٣٩ .

(٣) مواهب الجليل للحطاب المتوفى عام ٩٥٤ هـ ، جـ ٤ : ٢٩٤ .

عامة ، ولا على الموجود الذى لايقدر العاقد على تسليمه . وسيأتى هذا قريباً فى موضعه عند الكلام على باقى الشروط التى يجب توفرها فى المعقود عليه .

أما ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، من الحنابلة ، فقد سارا فى التوسعة فى العقود فى هذه الناحية أكثر من الإمام مالك : إنهما يريان أن المعدوم يصح أن يكون موضوعا للعقد على اختلاف أنواعه ؛ بلا فرق بين تبرعات ومعاوضات . وإذا كان بعض المعدوم لا يصح أحيانا أن يكون موضوعا للعقد ، فالسبب فى هذا هو ما يصحبه من الغرر والجهالة المفضيان عادة إلى النزاع أو القمار ، أى لا لأنه معدوم .

وفى ذلك يقولان [1] : بأنه ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله ؛ بل ولا عن أحد من الصحابة أن بيع المعدوم لا يجوز ، وإنما الذى ورد من ذلك هو النهى عن بيع بعض الأشياء المعدومة ، كما ورد النهى عن بيع بعض الأشياء الموجودة ، فليست العلة إذاً فى النهى هى العدم أو الوجود . إن الذى ثبت فى الصحيح عن الرسول أنه نهى عن بيع الغرر وهو ما لا يقدر البائع على تسليمه ، سواء كان المبيع موجودا كالبعير الشارد ونحوه مما لايُقدر على تسليمه . كما لم يجز إجارة دابة لا يقدر المؤجر على تسليمها وإن كانت موجودة ؛ فإن موجب البيع تسليم المبيع والبائع عاجز عنه ، والمشترى يشتريه مخاطرة أو مقامرة . . وهكذا المعدوم الذى هو غرر لالكونه معدوما كما إذا باع ما يحمل هذا الحيوان أو هذا الإنسان ، فإنه لا يُعرف قدره ولا وصفه فيكون من القمار وهو الميسر الذى نهى الله عنه .

وواضح بعد ما تقدم أن العلة فى عدم جواز العقد على بعض الأشياء ، هى ما فيها من الغرر ، لعدم القدرة على التسليم مثلا ، لأنها معدومة ؛ ولذلك أباح الشارع الإجارة والمساقاة مع أن المعقود عليه فى كليهما — وهو المنفعة فى الأولى وعمل الزارع فى الثانية — غير موجود وقت العقد ، لعدم الغرر فيهما . ولم يجز إجارة دابة أو سيارة مملوكة فعلا للمؤجر ، ولكنه لا يقدر على تسليمها فى الوقت المحدد للمستأجر .

وقد يكون من الحق ، مع تقديرنا لرغبة ابن تيمية ومن سار على رأيه فى التوسعة على الناس فى عقودهم ومعاملاتهم ، أن نقول بأن طبيعة قد تكون نفسها الحكم فى الأمر ؛ فالبيع مثلا طبيعته أو حكمه نقل ملكية شىء موجود من مالك إلى آخر ، وإذاً يجب أن يكون موضوعه موجودا وقت العقد إلا فى السَّلم ونحوه مما أجيز استحسانا . ومن ثم ، لا يصح أن يكون الزرع قبل ظهوره ، ولا الحمل فى بطن أمه ، ولا نحو هذا

---

(١) القياس فى الشرع الإسلامى ص ٤٠ ، إعلام الموقعين لابن القيم ج ١ : ٣٥٧ — ٣٥٨ .

وذاك من الأشياء المعدومة وقت العقد ، موضوعاً لعقد البيع ؛ فقد لا تنبت الأرض ، ولا تلد الماشية مثلا .

أما فى العقود التى تقتضى طبيعتها ألا توجد موضوعاتها مرة واحدة ، فلا معنى لاشتراط أن يكون محل كل منها موجودا فعلا حين العقد ، ويكفى لصحتها أن يكون يحتمل الوجود فى المستقبل عادة . ومن هذه العقود : الإجارة ، والاستصناع ، والمزارعة ، والمساقاة ، ونحوها ، فيكون الجواز من باب القياس لا الاستحسان .

(ب) ومن الشروط التى أوجب الفقهاء توفرها فى موضوع العقد ، أن يكون قابلا لحكمه . وهنا نجد الفقهاء جميعا على اتفاق فى أن مالا يقبل حكم عقد من العقود لا يصح أن يكون موضوعاً له .

ففى البيع مثلا ، لابد أن يكون المبيع مالا فى شرع المتعاقدين ؛ وإذاً فلا يصح أن تكون الخمر والخنزير محلا للبيع أو الشراء من مسلم ، وكذلك الميتة والدم ، ومن الميتة ذبيحة المجوسى والمرتد والمشرك بخلاف ذبيحة اليهودى والنصرانى ؛ لأن كل ذلك ليس بمال متقوم فى شريعة الإسلام[1] .

وفى آلات الملاهى ، كالدف والطبل والمزمار ونحوها ، خلاف بين الأحناف أنفسهم ؛ فقد رأى الصاحبان — أبو يوسف ومحمد بن الحسن — أنها ليست مالا بما أنها موضوعة للهو والفساد ، فلا تكون محلا لعقد البيع ؛ وعند الإمام أبى حنيفة أنها مال فى نفسها ، إذ يمكن الانتفاع بها فى غير اللهو والفساد : أى يمكن أن ينتفع بها فى أوجه مشروعة من جهة أخرى ، وكونها آلات لهو وفساد غالب الأمر لا يسقط ماليتها ، مثلها فى هذا مثل المغنيات والقيان[2] .

ويعبر المالكية عن هذا الشرط ، بأن يكون محل العقد منتفعا به ؛ وفى التطبيقات يمثلون بما لا يصح أن يكون محلاً له بالخمر ، والمطربات المحرّمة ، وبالكلاب غير المأذون فى تملكها ككلاب الحراسة أو الصيد ، والتماثيل والصور المخروطة المجسدة . أما غير المجسد ، وغير كاملة التصوير ، فيصح بيعها لتلعب بها الجوارى ؛ لما روى أن عائشة رضى الله عنها كانت تلعب — بعلم الرسول صلى الله عليه وسلم — بشىء من ذلك ،

---

(١) بدائع الصنائع جـ ٥ : ١٤١ .

(٢) نفسه ص ١٤٤ . ويتفق رجال المذاهب الأخرى مع الصاحبين فى عدم جواز بيع آلات اللهو . انظر مواهب الجليل للحطاب فى مذهب مالك جـ ٤ : ٢٦٣ ، والوجيز للغزالى فى مذهب الشافعى جـ ١ : ١٣٤ ، الروض المربع ، فى مذهب ابن حنبل ، لمنصور بن يونس البهوتى جـ ٢ : ٤ .

وما جاز اللعب به جاز طبعا عمله وبيعه والاتجار فيه[1] . ومن ثم ، نرى أن أكثر لعب الأطفال صحيح شرعاً عملها وبيعها والاتجار فيها .

ومن قبول موضوع العقد لحكمه ، ألا يكون مباحا إذا كان العقد عقد بيع ، بل يجب أن يكون مملوكا للبائع حتى يجوز له بيعه ؛ لأن المباح ليس أحد أولى بملكيته من الآخر .

وإذاً ، لا يصح بيع أو هبة السمك فى الماء قبل صيده ، ولا الطير فى الهواء إلا إذا كان له وكر — كأبراج الحمام — يطير ويعود إليه ، ولا نحو هذا وذاك مما هو مباح للناس جميعا ؛ ما دام حكم البيع والهبة هو نقل الملكية ، وهنا لا ملكية لأحد فى الأشياء المباحة . ويدخل فى هذا الضرب : فى أنها لا تكون موضوعا للعقد ، أملاك الأمة العامة ، كالطرق والأنهار والجسور والقناطر العامة والأرض الموات والصحراوات . كل ذلك لا يصح أن يكون موضوعا لعقد بيع أو إيجار أو هبة مثلا .

(حـ) وبعد هذين الشرطين ، يشترط فى موضوع العقد أن يكون معيناً بصورة تكون نافية للجهالة التى تؤدى للغرر والنزاع بين المتعاقدين ، وهذا الشرط متفق عليه بين الفقهاء جميعا ؛ لأن رضاء المتعاقدين أساس العقد ، ولورود الآثار بالنهى عن عقد لا يكون موضوعه معيناً على الصورة التى ذكرنا .

والعُرف هو الحَكَم فى أن هذا الشىء لا يصح أن يكون محلا للعقد لأن ما فيه من الجهالة يؤدى للنزاع ، وذلك يصح لأن ما به من جهالة لا تفضى إلى النزاع . وإذاً ، فبيع حيوان دون بيان جنسه وصفته التى تعرّفه ، وأداة تصوير دون بيان نوعها ، « ورادبو » من غير بيان « ماركته » . كل هذا ونحوه ، يعتبر مجهولا جهالة فاحشة تجعله غير صالح لأن يكون موضوعاً لعقد البيع ؛ إذ ما به من جهالة يؤدى حتما للنزاع ، ومبنى العقود على التراضى .

وهذه الجهالة الفاحشة كما تمنع من صلاحية الشىء أن يكون موضوع عقد البيع ، تمنع من صلاحيته أن يكون موضوع عقد آخر كالإجارة مثلا . ولهذا ، نجد علاء الدين الكاسانى الملقب بملك العلماء يذكر من شروط عقد الإجارة أن تكون المنفعة المعقود عليها معلومة علماً يمنع من المنازعة . ويعلل هذا ، بأن الجهالة التى تؤدى إلى النزاع تمنع من التسليم و التسلّم ، فلا يحصل المقصود من العقد ؛ فإن لم تكن كذلك ، يوجد

---

(١) مواهب الجليل للحطاب جـ ٤ : ٢٦٣ وما بعدها

التسليم والتسلم ، فيحصل المقصود من العقد . وضرب مثلا للجهالة المفضية للنزاع ، والتي تمنع لذلك من صحة العقد ، قول القائل : أجّرتك إحدى هاتين الدارين ، أو استأجرت منك أحد هذين العاملين (١) .

وإذا كان أبو حنيفة والشافعي يشترطان لصحة العقد ألا يكون موضوعه مجهولاً جهالة تؤدي إلى النزاع بين المتعاقدين كما رأينا ، فإن الإمام مالكاً لا يتشدد مثلهما فيجعل ذلك قاعدة عامة في كل العقود والتصرفات ، كما لم يتشدد فيما سبق في اشتراط وجود الشيء ليصح أن يكون موضوعاً للعقد إذا كان عقد تبرع . ولهذا ، نراه يقسم العقود من هذه الناحية ، إلى أقسام ثلاثة .

١ — عقود المعاوضات ، كالبيع والإجارة . والجهالة الفاحشة تمنع من صحة كون الشيء موضوعاً للعقد ؛ وإذاً فلا يصح العقد معها .

٢ — التبرعات ، كالهبة والوقف والإبراء من الدين ، وهي تصح بالمجهول والمعلوم ، كما تصح بالموجود وبالمعدوم حين العقد ؛ إذ لا ضرر فيها على أحد ، ولا يتصور فيها النزاع ، فلا سبيل على المحسنين . وبخاصة والأحاديث التي نهت عن الغَرَر وردت في البيع ونحوه ، فلا يصح أن يلحق به إلا ما يشبهه وهي عقود المعاوضات .

٣ — العقود التي تشبه المعاوضات من ناحية ، وتشبه غير المعاوضات من ناحية أخرى ، وذلك كعقد الزواج . ومن ثم ، تصح مع الجهالة التي لا تصح معها عقود المعاوضات ؛ فإذا تزوج إنسان امرأة على أن يكون المهر حصاناً مثلاً ، ولم يسم نوعه ، صح العقد ووجب الوسط من هذا الحيوان (٢) .

(د) وأخيراً ، يُشترط لصحة كون الشيء موضوعاً للعقد أن يكون مقدور التسليم عند العقد . وإذاً ، فالحيوان الشارد ، والمتاع المغصوب ممن لا يمكن المالك استرداده منه ، لا يصح أن يكون أحدهما محلاً للبيع ؛ لأن المهم ليس كون المبيع مملوكاً للبائع ، بل أن يكون المالك قادراً على تسليمه ، حتى لا يقع نزاع بينه وبين المشتري عند ما يريد تسلّم ما اشتراه .

ولهذا الشرط تطبيقات كثيرة : الحيوان الضال ، الشيء المغصوب ، الميراث الذي لا يستطيع الوارث الذي لا يريد بيعه أو تأجيره وضع يده عليه ، ملك الإنسان

---

(١) بدائع الصنائع ج ٤ : ١٩٧ — ١٨٠ ، على أن عقود التبرعات لا تضر فيها الجهالة التي تضر في غيرها ، ولهذا تصح وصية إنسان بجزء من عشرة مثلا من ماله .

(٢) انظر الفروق للقرافي ج ١ : ١٥٠ — ١٥١ ، تهذيب الفروق ج ١ : ١٧٠ — ١٧١

في يد العدو أو في بلد أجنبي لا سبيل للحصول عليه ، إلا أن يبيعه ممن يقيم في هذا البلد فيكون قادراً على تسلمه .

وفي ذلك يقول علاء الدين الكاساني ، فيما يختص بالبيع : بأن من شروطه أن يكون المبيع مقدور التسليم عند العقد ؛ وإلا فلا ينعقد البيع وإن كان مملوكاً للبائع ، حتى لو أمكن تسليمه فيما بعد احتيج إلى تجديد الإيجاب والقبول ، إلا إذا تراضيا فيكون بيعاً بالتعاطي . كما يذكر أن من شروط صحة عقد الإجارة أن يكون المعقود عليه مقدور الاستيفاء حقيقة وشرعاً ؛ لأن العقد لا يكون وسيلة للحصول على المعقود عليه بدون القدرة على تسليمه . فلا يجوز استئجار الآبق ؛ لأنه لا يقدر على استيفاء منفعته حقيقة لكونه معجوز التسليم حقيقة ، ولهذا لم يجز بيعه أيضا . كما لا تجوز إجارة الشيء المغصوب من غير الغاصب ، كما لا يجوز بيعه من غيره ، كما قلنا (١) .

***

هذه هي جماع الشروط التي يجب توفرها في الشيء ليصلح أن يكون موضوعاً أو محلاً للعقد . ومنها ، نرى أن الأساس في العقد ، فيما يختص بهذه الناحية ، أن يكون موضوعه قابلاً لحكمه ، وأن يكون خالياً من كل ما يؤدي إلى النزاع بين المتعاقدين ؟

ميزان

إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة .

« ابن تيمية »

---

(١) انظر ، فيما يختص بالبيع البدائع ج ٥ : ١٤٧ ، وفيما يختص بالإجارة ج ٤ : ١٨٧

مقترحات

للدستور الإسلامي في الباكستان

الفصـــل السادس

الحقوق المدنية

(المادة ٩)

من حق كل واحد من أفراد الدولة أن تكون نفسه وماله وحقوقه الملكية مصونة ، وأن يتمتع بحرية النفس وحرية الرأى وحرية انتخاب المهنة وحرية العبادة وحرية الخطابة والكتابة وحرية الاجتماع والاحتفال وحرية الاستفادة من جميع المؤسسات الاجتماعية للدولة . وعلى الحكومة أن تحافظ على سائر هذه الحقوق والحريات ، ولا يُسلب أحد من سكان البلاد حقاً من هذه الحقوق إلا إذا ثبتت عليه جريمة قانونية حسب القواعد الشرعية .

(المادة ١٠)

لكل فرد من أفراد الدولة حق فى المحاولة لكسب رزقه بالطرق المباحة ؛ لا يحرم هذا الحق أحد ، ولا يؤثر فيه أحد على غيره . وأبواب السعى لاكتساب الرزق تكون مفتوحة لكل واحد على السواء .

(المادة ١١)

كل نعمة من نعم الطبيعة ؛ كماء الأنهار والعيون وحطب الغابة وأثمار الأشجار الطبيعية النابتة فى أرض عادية والأعشاب والعلف والماء والهواء وبهيمة الصحراء والمعادن العامة على ظهر الأرض — لا بد فى إعدادها أو إصلاح شأنها لجهد الإنسان وكفاءته — مباحة مشاعة للناس ؛ ينتفعون منها بقدر حاجتهم . لا تحتكر هذه الأشياء ولا يوصد بابها دون عباد الله ويمكّنوا من قضاء حاجاتهم منها دون مقابل .

(المادة ١٢)

حقوق الملكية التى يتمتع بها الأفراد بالطرق الشرعية المباحة ، مصونة جديرة بالحرمة ، وعلى الحكومة أن تحافظ على مثل هذه الحقوق للأفراد .

الفصـــل السابع

المدنية

(المادة ١٣)

كل مسلم ، فى أى ناحية من نواحى الأرض كان مولده ، إذا دخل فى حدود الدولة أصبح فرداً من أفرادها ، يتمتع فيها بالحقوق المدنية بمثل ما يتمتع به الذين ولدوا فيها ؛ وسواء عليه فى ذلك إذا جاء إليها مهاجراً من دار الكفر أو انتقل إليها بقصد السكنى أو السياحة من دار للاسلام أخرى .

الفصـــل الثامن

حقوق أهل الذمة

(المادة ١٤)

ولكل من لا يتفق مع الدولة فى مبادىء الحاكمية والخلافة وغاياتها اتفاقاً كلياً ، يمكنه أن يعيش ذميا فى حدود الدولة ، إذا أقرّ بولائه للدولة وإذعانه لقانون البلاد .

(المادة ١٥)

تخول الدولة أهل الذمة علاوة على الحقوق الإنسانية الأساسية والحقوق العامة ، سائر الحقوق التى أقرتها الشريعة لهم ، وليس لأحد أن يسلبهم إياها أو ينقصهم شيئاً منها . غير أنه للدولة أن تزيدهم حقوقاً أخرى غيرها إذا رأت فيها مصلحة بشرط أن لا تعارض هذه الزيادة مبدأ من مبادىء الإسلام .

(المادة ١٦)

كل ذمى إذا حصل على حقوق أهل الذمة أو منحها بموجب الدستور ، لا يخرج من الذمة إلا إذا أعلن خروجه منها بنفسه ، أو نفى ما أقرّ به من الولاء للدولة بارتكاب عمل من أعمال البغى والعدوان الصريح .

(المادة ١٧)

(ا) تراعى المساواة بين المسلمين وأهل الذمة فى الحقوق العامة مراعاة تامة .

(ب) وكذلك تكون المساواة تامة بين المسلم والذمى فى القوانين الجنائية والمدنية .

(ج) ولأهل الذمة أن يؤسسوا معابدهم فى أمصارهم وكذلك لهم أن يؤدوا شعائرهم الدينية علانية .

(د) وأهل الذمة من حقهم أن يلقنوا أبناءهم ومن كان على دينهم تعليم دينهم ،

وكذلك يسمح لهم بأن يدعوا غير المسلمين إلى دينهم ، وكذلك يجوز لهم أن يبيّنوا محاسن أديانهم أو ينتقدوا الإسلام[1] فى حدود القانون .

(هـ) وأهل الذمة يُقضى فى جميع شئونهم الشخصية والذاتية حسب قانون أحوالهم الشخصية (personal Law) ولا يطبق عليهم القانون الإسلامى ، إلا إذا طالبوا به بأنفسهم . أما إذا كان النزاع بين المسلم والذمى ؛ فلا يقضى فيه إلا حسب قانون البلاد .

(و) وأهل الذمة لا تبعة عليهم فى الدفاع عن البلاد (Defence) إلا إذا قدّم أحدهم نفسه بنفسه لخدمة عسكرية ، وتؤخذ منهم حسب أحوالهم الشخصية ضريبة لنفقات الدفاع بدلا من هذه التبعة على المسلمين . لكن هذه الضريبة لا تجبى إلا ممن كان من رجالهم أهلا للمحاربة (Belligerents) ويستثنى منها النساء والأطفال والعجزة والشيوخ والمنقطعون للعبادة . كذلك يستثنى منها الذين يقومون بخدمات عسكرية .

الفصـــل التاسع

الاستقلال الثقافى (Cultural Atonomy Auto) لأهل الذمة (وهذا الحق وإن لم يكن من الحقوق التى يجب أن تكون جزءا لا يتجزأ من كل دستور إسلامى حسب الشريعة الإسلامية ، إلا أنه من الممكن أن يمنحه أهل الذمة حسب قواعد الإسلام) .

(المادة ١٨)

يتمتع أهل الذمة بالاستقلال الثقافى ضمن حدود الدستور ، ولهذا الغرض يسمح لهم بأن يؤلفوا من ممثليهم المنتخبين لجنة يكون من واجباتها :

١ — الإشراف على المعاهد الثقافية والدينية لأهل الذمة .

٢ — التقدم بمطالب أهل الذمة وشكاويهم إلى الحكومة .

٣ — الانتقاد لأداة الحكومة وإظهار آرائهم ومقترحاتهم فى شئون البلاد العامة.

٤ — تهيئة التوصيات للقوانين المتعلقة بالمسائل الاجتماعية والثقافية والأحوال الشخصية لأهل الذمة ، مما يمكن ضمه إلى قانون البلاد بعد ما ينظر فيه مجلس الشورى ويصادق عليه .

---

(١) والمراد بذلك أنه مما يسمح به لكل فرد من أفراد أهل الذمة أن يبقى متمسكا بديانته التى يدينها وأن يبين من الأسباب والوجوه ما يعوقه عن قبول الإسلام ؛ فما يستلزم كل ذلك أن يذكر فى بيانه من أمور الإسلام ما لا ينشرح معه خاطره لقبوله . وكذلك يجوز له أن يظهر ما فى قلبه من الشبهات والشكوك فى عقائد الإسلام وشعائره . أما ذم الإسلام والافتراء عليه والطعن فيه فلا يسمح به القانون الإسلامى لأحد أبداً . وإنا لم نعثر إلى الآن فى ما قرأناه من تاريخ الخلفاء الراشدين وسيرهم على شىء يدل على أن أهل الذمة نهوا عن انتقاد الإسلام .

من ثمرات الرحلات الإسلامية

للأستاذ أحمد مظهر العظمة

مفتش الدولة ورئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي بدمشق

نشرنا في الجزء الثاني لهذه المجلة الزاهرة كلمة عن الرحالين المسلمين ، ورجونا أن نصل البحث بما يتعلق به من أنباء الرحالين . ولا جرم أن للرحالين من الأنباء المفيدة والطريفة والظريفة الشيء الكثير ، وأن المجهولين منهم أكثر عدداً ممن حفظ التاريخ آثارهم أو شيئاً عنهم . ومرد السبب في ذلك على الغالب إلى أن من أولئك الرحالين أنفسهم جماعة لم يعنوا بتدوين رحلاتهم ، وأن منهم أناساً ضاعت كتبهم فيما ضاع من الكتب في النكبات العديدة التي مُنِيَ بها التاريخ الإسلامي .

ولئن كان كثير من الناس يحسبون أن كتب الرحلات كتب تسلية ، بضاعة ذويها سرد حكايات ورؤية مشاهدات أو مرويات ؛ فإن من الخير أن نذكر هؤلاء بأن لكتب الرحلات فضلاً عظيماً في التعريف — مجملاً أو مفصلاً — بالأقطار النائية التي ضمتها رقعة دولتهم وما سمت إليه هممهم من البلاد الأخرى ، فقد عرّف أولئك الرحالون بجزيرة العرب وإيران تعريفاً صادقاً جغرافياً واجتماعياً وعمرانياً ، وبلغ بعضهم الصين وكتبوا عنها منذ القرون الوسطى الشيء الكثير ؛ منهم ابن بطوطة [1].

وفي رحلته : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) التي طبعت مع ترجمة فرنسية في باريس على يد المستشرقين ديفريمري Defrémery وسانكنتي Sanyuinetti في منتصف القرن الماضي ، ولخصها الأستاذ جب Gibb بالإنكليزية عام ١٩٢٩ ، في هذه الرحلة من أنباء الصين الصناعية والفنية والاجتماعية والاقتصادية شيء كثير . ومن ذلك ما يظن من مبتكرات العصور الحديثة كرواية أن (أهل الصين لايتبايعون بدينار ولا درهم . . . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطعة كاغد ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وإذا تمزقت تلك الكاغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جُدُداً ودفع تلك ، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها) .

(١) ولد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) وعاد إلى بلده بعد رحلاته سنة ٧٥٠ وتوفي بمراكش عام ٧٧٩ .

ومن ذلك تصوير الصينيين الغريبَ حتى (إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه) ومن ذلك عناية الصينيين بمنازلهم فى الصين (يكون للانسان بها البستان والأرض وداره فى وسطها كمثل ما هى بلد سجلماسة ببلادنا) وبهذه المشابهة السريعة عرّف ببلد آخر على هذه الشاكلة تصور جانباً من الحالة المدنية الإسلامية .

***

ويظهر أن من ثمرات رحلات المسلمين وبحوثهم العلمية والتجارية اكتشافات عظيمة ، ولعلهم عرفوا أمريكا قبل أن يعرفها كولومب بحثاً واكتشافاً :

فنى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى [1] أن أبا الثناء محمود بن أبى القاسم الأصفهانى (ت ٧٤٩ هـ) قال :

(لا أمنع أن يكون ماانكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفا من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى) .

قال محقق الكتاب أحمد زكى باشا : للأصفهانى (وهو بمصر) فضل السبق على كرستوف كولومبس (وهو بالأندلس) ؛ لأنه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف ، وللأصفهانى فضل أكبر على مكتشف أمريكا ؛ لأنه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال ، وأما كولومب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . . . الخ . . .

لكن اكتشاف العرب أمريكا لم يكن اكتشاف تخيل وفطنة فقط فقد يكون واقعياً ، ومما يؤيد ذلك أن أحد علماء جامعة هارفرد ليوونير Leowiener ألف كتاباً عنوانه : إفريقية وكشف أمريكا ، أثبت فيه وجود كلمات عربية فى كلمات هنود أمريكا ، وقال إن أقدمها يرجع إلى سنة ١٢٩٠ م ، أى إلى ما قبل وصول كولوب إلى أمريكا بقرنين : وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين .

وقد ذكر كولومب لدى رجوعه من رحلته الثالثة أنه وجد زنوجاً فى البلاد التى كشفها (أمريكا) ، وأنه أهدى إليه شىء من الجوانين (شذور الذهب للمزوج

(١) ص ٣١ .

بالنحاس التى كان يؤتى بها من غانة فى الجنوب الغربى من إفريقية) فقد يكون الذين أدخلوا أمريكا تلك الكلمات العربية جماعة من البربر، أو من الإفريقيين الذين تعلموا العربية ، وقد كانت إفريقية تعرفها كما شهد بذلك من الرحالة ابن بطوطة . هذا عدا الأدلة العمرانية التى ذهب إليها بعض الباحثين ؛ فقد وجدوا أن عمران الأزد والمايه عمران عربى محض ، ويظهر أنه انتقل من مندنجو فى غربى إفريقية ، إلى مشوا كان على شاطىء خليج المكسيك ثم إلى غيرها . والآثار العربية فى لغات أمريكا ترد إلى هذا المصدر أيضاً [١] .

إما إفريقية فقد (أثبت أصحاب الخطط وبينهم المقريزى أن كل سواحل إفريقية الشمالية والشرقية والجنوبية اكتشفها العربُ بعد الفتح الإسلامى بزمن وجيز على عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين : أى فى إبَّان مجد مملكة العرب وسعة سلطانها ، ثم توغلوا فى مجاهل البلاد حوالى النيل ، والنيجر ، والكونغو ، وكان عرب عُمان وحضرموت والشمر والبحرين أول من عرف طريق الهند من عهد سحيق ، وفى بدء الفتوحات الإسلامية اجتازت مراكبهم سواحل إفريقية كلها وملكوا ، الصومال ، وجوبع ، وممبسه ، وزنجبار ، وموزمبيق ، وجزائر الكومور ، ولم تزل بقايا العرب فى جزائر مدغشقر وفيليبين [٢]) .

استغفار

نستغفر الله من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا .

ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجه الكريم ثم خالطه غيره .

ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصية .

(الإمام الغزالى)

---

(١) الرواد ص ٦١ — ٧٢ من مقال (العربية فى أمريكا قبل كولومبوس) وقد لخص كاتبها معظمها عن مجلة العالم اليوم World Today فى جزء شباط (فبراير ١٩٢٦ .

٢) ص ٨٧ .

المادة والقوة ! أيها المسلمون ..

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أعجب للمسلمين ! كيف فوتوا على أنفسهم فهم نصوص كتابهم الكريم فيما يتصل بقوانين النشوء والحياة وتحديد ما بين عالم الخلق وعالم الأمر ؛ ليصدروا بعد ذلك الفهم على طرق واضحة مستقيمة توصل إلى أهداف الحياتين بأيسر الجهد . !

عجبت لهم كيف تركوا ما فى كتابهم من حقائق الفطرة التى فطر الله الدنيا عليها وامتاز دينهم بأنه أصدق دين أقامها وتسمى باسمها واتخذ للمسلمين اسمهم من إسلام النفس لها ، ثم هم بعد ذلك يلجأون للشطحات والأوهام والأحلام ويتركون المعالم الواضحة الآخذة إلى الحق والعمل ، سعيا وراء سراب أو تخلصا من قيود التراب أوجريا وراء طفولة التصور وانسلاخ القوى وتجسيم الخيال !

وكان من نتائج ذلك أن درجوا فى العصور المتأخرة على فهم غير صحيح لمقومات الحياة وأدوات العيش العزيز فيها ، وإدراك آثار الأعمال المادية بها مما ترك فى حياتهم آثاره الحتمية وضروراته القاسية من التخلف فى جميع الميادين ، وتفاهة التدبير وعيش أكثريتهم الساحقة فى هذا العالم الجديد عيشة بدائية ؛ يطمع فى رياستهم كل جاهل لايتصل بعلوم عصره ولابفنون زمانه ، وأبطال «الروح» فى خيالهم صور من الدراويش والعجزة والقاعدين والمشوهين ومن قعدت بهم هممهم عن الزحام فى مجالات الحياة ... وآفاق الاختراع والابتداع عندهم لا تزال هى آفاق الأدب والشعر والجدليات والمماحكات اللفظية والإيغال الصوفى فى أودية الشعر والأحلام . . . ورجال الدين بينهم صور بعيدة البعد كله عن العمل المادى ، فقل أن تجد منهم من يحسن عملا ماديا من أعمال خدمة بيته أو النجارة أو التجارة أو الآليات كما كان الشأن فى رسول الإسلام وصحابته . . . وأخلاقهم أخلاق غير علمية لم تبن على فهم العلاقة التى أقامها الله بين المسببات والأسباب ، ولذلك لا يستقبلون أمورهم بالتدبير الكامل والفكر المستجمع وإنما يتركون فيها ثغرات تدخل منها أسباب الخيبة والانتكاس ، ثم يرجعون بعد ذلك باللائمة على الأقدار .

ثم هم يستقبلون الأحداث الفاجعة بابتسامة ليس مبعثها رباطة الجأش والصبر ؛ وإنما

هى ابتسامة البله وعدم الارتفاع إلى مستوى الحوادث ، وتقدير الأمور حق قدرها . .
فهم للآن لم يحسوا خطر قيام « إسرائيل » كمسدس مصوب إلى قلب بلادهم ، تمسك
به يد تمدها بجميع أسباب القوة والحضارة المادية والخديعة العالمية ، وتشدها جميع
القوة المعادية للاسلام . .

ثم هم غافلون عما يأتى به كل يوم من الجديد الصالح الذى تزيد به قوى أعدائهم ،
وعن أن الحياة فى هذا العصر ينبغى أن تكون حياة يقظة للحظات المتتابعة . . فقد
تكون أمة فى لحظة ما أقوى أمم الأرض بحيازتها سراً من أسرار السيطرة المادية ليس
عند غيرها فتأتى لحظة أخرى وراءها بسر يقلب وجه الأمر وينقل مركز الثقل إلى
أمة أخرى . . . ولذلك كان سر الحياة الآن هو ما يجرى فى المعامل والمصانع : تلك
الأرحام التى تتمخض عن مستقبل الإنسانية .

* * *

ولقد اختلط فى أذهان المسلمين المتأخرين معنى المادية اختلاطا خطراً جعلهم
يخبطون فى حياتهم خبط عشواء ، وقد حملهم هذا الخبط والخلط على ذم المادية
والبراءة منها .

وأسارع إلى توضيح المادية المذمومة حتى تتضح أمام أفكارنا معالم الطريق .

المادية المذمومة تكون فى الفهم العقلى للكون وفى السلوك العملى فى الحياة . . .
فعندما لا يؤمن الإنسان بشىء وراء هذه المحسات المادية ، ولا يرى قبلها شيئا ، ولا بعدها
شيئاً ؛ فلا عقل منفصلا عنها يخلقها ويدبرها ويبتدئها ويعيدها ، وإنما هى طبيعة عمياء صماء
تدور بقوانين آلية ، لا مبدأ لها ولا منتهى . . فتلك مادية عقلية مذمومة باطلة . . وعندما
يستغرق الإنسان فكره وكيانه فى التفكير فى المادة وأشيائها وحدها ولا يرفع نظره
وفكره عنها إلى من أوجدها . . . وعندما يتهالك على اقتناء أشيائها تهالكا فاتنا
ينسى فيه الشرف والإيثار والدين والمروءة والأخوة الإنسانية ، وتضرى فيه شهواته
الخسيسة ونوازعه الدنيئة من أجلها . . فتلك مادية عملية بغيضة بهيمية .

أما المادية التى تحترم أسرار القوى الكونية المجسة ، وتنتفع بها وتحتفل لها ، وتعلم
أنها من أبجدية الحقائق العليا التى عند الله تعالى والملأ الأعلى فى عوالم الأمر ، وتقتنى
أشياءها على أنها أداة ووسيلة إلى تحقيق المعانى ، ولا تشعر أنها مملوكة للمال بل مالكة
له ، وأن الدنيا فى يدها وليست فى قلبها ، ولا تهدر فى سبيل الاقتناء شرف النفس

ومروءة الطبع وكرم الخلق ، بل تنفق فى الخير جهدها وتؤثر على نفسها ، ولا تستغرق النفس والإدراك وقوى العمل فى التفكير فى المادة وحدها ، بل تجمع مع ذلك رفرفة وتطلعاً إلى الملأ الأعلى ، وتخليص الطبع وتصفيته من شوائب الطين . . أما هذه المادية فهى المحمودة المطلوبة ؛ لأنها إحدى القوتين اللتين ترتكز عليهما حياة الكائن الإنسانى.

* * *

لقد حول علماء الكهرباء المادة إلى طاقة ، وحان للربانيين العصريين أن يحولوها إلى روح !

والأمر سهل غاية السهولة ، إذا رضنا أنفسنا على الفكر والعلم وحكمنا العالم المادى من داخلنا وكيفنا صورة كل شىء بهذا السر اللطيف الذى فى نفوسنا . . وحولنا كل عمل فى المادة إلى عبادة نخاطب فيها وجه ربنا الخالق البارىء المودع أسراراً من علمه فى هذا العالم المادى .

غير أن هذه العملية التى يمتزج فيها العلم بالعبادة أو بالأحرى يتحول فيها العلم المادى إلى تعبد ، لاتزال يضيق بها الجاهلون المحدودون ، ولذلك يلجأون إلى الخروج من عالم المادة والواقع على أجنحة الأحلام والأوهام وتجسيم الخيال والإيغال فى أودية التيه . والأحلام والظنون لاتغنى من الحق شيئا ولا تنهض أمما « لاتنفذون إلا بسلطان » ، « وما اتخذ الله من ولى جاهل » .

ومن دخل هذه الدنيا العجيبة وعاش فيها وعمر مايتذكر فيه من تذكر ، ثم ضاق بها ولم ير فيها شيئاً يستحق أن يعلمه من أسرار علم الله ، ولا عملا يستحق أن يعمله فى رحاب ملكوت المادة ، وأسرع إلى الخروج منها بفكره مستهيناً بشأنها ؛ كان مثله مثل من يأخذه فنان عظيم إلى متحف من إنشائه ليريه من معروضاته مايثير إعجابه ، فلم يكن منه إلا عدم الاكتراث و احتقار المعروضات والإسراع إلى الخروج . .

فيا أيها المسلمون : سارعوا واسبقوا إلى أمجاد الحياتين على مطايا من العلم والعمل فى أسرار المادة والقوة ، لجمها وأعنتها نوايا خالصة لله تتجه إلى وجهه تعالى وتذكر اسمه ذا الجلال والإكرام عند كل نفع أو انتفاع أو تسخير .

واعلموا أنكم فى ظلال عالم جديد من الفكر والحديد . . وأن هذا العالم القاسى يحتاج إلى قوة منكم تخضعه ، ثم تلطف قسوته بربانية تحيل المادة إلى روح شفيف وجوهر لطيف يردد اسم الله وتجلو أختامه وتوقيعاته على الأشياء ..

« ولقد آتينا داود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا » .

جماعة ...

قلت له : لم أفهم ما تعني . . . .

قال : أقصد أن الإسلام هو الإسلام ، قائم فى ذاته لكل من يرجع إليه ، لا تحتكره جماعة مهما بلغت ، ولا تنفرد به مجموعة من الناس مهما عزّ شأنها وسلمت نيتها . . . وبغير ذلك لا يستقيم الأمر للاسلام ولا للمسلمين .

قلت : الآن فهمت . . . ولكنى أسألك سؤالا : كيف ترى أن يأخذ الناس نصوص الإسلام حين يختلف فيها الرأى ؟ — إن الأمر سهل حيث يخص الأمر فرداً وحده : فإن له حين يبلغ حد النظر فى نصوص الدين أن يختار الرأى الذى يترجح لديه دليله ويسكن إليه قلبه . أما حيث يخص الأمر أكثر من واحد ، أو حين تتعلق به شئون المسلمين جميعاً : فماذا ترى ؟ قال : هذا موضع الإمام وأهل الحل والعقد . . .

قلت : فإن غابا . قال : فالمسلمون حينئذ بشر حال . ولا يمكن أن يجتمعوا على أمر . . .

قلت : وذلك حالهم اليوم ياصاحبى ، واجتماعهم كلهم على أمر واحد قد يكون غاية لا تزال بعيدة ، ولكن الخطوة الأولى إليها هى اجتماع بعضهم : ممن تقاربت أفهامهم وتعارفت أرواحهم ، يجتمعون على ما يفهمون من أمر هذا الدين ، وبالعاطفة العالية التى تجعلهم أغير على حرماته وأحرص على خدمته وأقدر على حمايته والبذل فى سبيله ، وهم باجتماعهم إنما يستجيبون لله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » . هذه المجموعة الطيبة حين تقوم ؛ تقوم بفهمها وروحها ونظامها ، وتقوى بقوة كل ذلك فيها ، وأقوى ما تقوم به هو اتحاد آحادها روحاً وعملا ، واستعدادهم أن تجمعهم الوجهة الواحدة حين تختلف مآخذ الرأى ، ما دامت فى غير معصية ، وما دام فى التأويل مندوحة ، وما دام الاجتماع لا بد منه لإحقاق الحق والإدالة من الباطل ، وهم فى ذلك لايعدون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم أحدكم » .

روح الجماعة هذه لا يحرسها فى هؤلاء — بعد إذن الله وفضله — إلا نظامهم الذى تبايعوا عليه ، وكل نيل منه أو استهتار بحرماته تقويض لها وغفلة عن نعمة الله فى تأليف هذه القلوب ،واجتماع هذه القوى بين أمة فرّقتها الأهواء واتحدت عليها قوى الباطل .

ألا تذكر يا صاحبى أمسية الثلاثاء التى أعقبت شراء المركز العام الجديد ، حين وقف إمامنا الشهيد يعلق على كلمة سمعها من أخ كريم : « احنا اشترينا دار » فقال رضوان الله عليه : « أيها الإخوان : أما وقد قلتموها ، وشعرتم أنكم أمة واحدة على الحق ؛ فلن تغلبكم قوة أبداً » . . . .

طلائع الإسلام في الهند

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

« هذا بحث قدم لفضيلة الأستاذ السيد محب الدين أذن لنا فى نشره مشكورا مأجورا » التحرير .

إن المُرُوءَةَ والسَّماحةَ والنَّدَى لمحمَّد بن القاسم بن محمَّدِ
ساسَ الجيوشَ لسبعَ عشرةَ حجَّةً يا قُربَ ذلك سُودداً من مولد

الاتجاه نحو الشرق

كانت للاسلام فى صدره الأول سياسة عليا فيما يتعلق بالتوغل فى الشرق ، بعد أن قوّض سعد بن أبى وقاص عرش الأكاسرة ، وأطفأ نار المجوسية إلى الأبد . وكان مردُّ هذه السياسة إلى أحاديث نبوية جديرة بطول الدراسة والتفكير . منها أحاديث أم المؤمنين زينب فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم استيقظ من النوم محمرّ الوجه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سدّ يأجوج ومأجوج مثل هـذه . . الخ » وحديث سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب فى صحيح مسلم : « إن الفتنة تجىء من ها هنا ــ وأومأ بيده نحو المشرق » وقد تكلم الحافظ ابن حجر على ذلك فى فتح البارى (١٣ : ٣٥) وهو موضوع لا يزال إلى الآن فى حاجة إلى طول التفكير فيه ، وبعد النظر فى مراميه . ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر إلى القائد الحكيم الأحنف بن قيس ــ فيما ذكره ابن الأثير فى فتح خراسان من حوادث سنة ٢٢هـ ــ فأمره بأن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه وقال له بالحرف : «وددتُ لو أن بيننا وبينها بحراً من نار » . وقبل ذلك فى سنة ١٥هـ أراد الأمير القائد المرشد عثمان بن أبى العاص الثقفى (وهو من شيوخ سعيد بن المسيب ونافع بن جبير ومحمد بن سيرين ، وقال عنه الحسن البصرى : ما رأيت أفضل منه) ، أراد هذا الأمير الداعية وهو وال لعمر على البحرين وعمان والخليج الفارسى أن يوجه دعاة الإسلام من ناحيته إلى الهند ، وبالفعل أرسل أخويه الحكم بن أبى العاص إلى بروص والمغيرة بن أبى العاص إلى خور الديبل ، فظفرا وانتصرا ، وأرسل جيشا

خفيفاً إلى تانه مستكشفا ، ثم كتب إلى عمر بخطة حربية تبدأ الخلافة بالجرى عليها فى هذا الوجه ؟ فلامه عمر وكتب إليه : « يا أخا ثقيف ، حملت دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذتُ من قومك مثلهم » .

وأنا لا أزعم أن موقف عمر تفسير قطعى للأحاديث التى أشرت إليها ، فعمر كان يحب التأنى والتثبت ، ولعل من تأنيه وتثبته التوقف فى تفسير هذه الأحاديث إلى أن تستنير له طريقها . لكنها بلا شك كان لها حساب كبير فى خطة عمر وسياسته ، ولذلك كان قوله فيما يتعلق بالباب وما وراء الباب ، وما يتعلق بما وراء النهر وما دون النهر : « وددت لو أن بيننا وبينها بحراً من نار » . أما الهند وأندونيسيا فقد أثبت التاريخ أن فى الاتصال بهما وبأمثالهما خيراً كثيرا ، ولله الحمد المنة .

استكشاف المسلمين للهند

وفى خلافة أمير المؤمنين عثمان أرسل واليه على العراق — وهو عبد الله بن عامر ابن كريز — مستكشفين إلى الهند بإشارة من أمير المؤمنين ، وكان يرأسهم حكيم ابن جبلة العبدى ، فلما عادوا وجههم والى العراق إلى أمير المؤمنين عثمان فى المدينة ، فقال له حكيم بن جبلة وهو يذكر الهند : « يا أمير المؤمنين ، قد تعرّفتها وتنحرتها » .

قال عثمان : — فصفها لى .

قال حكيم : — ماؤها وشل ، وتمرها دقل ، ولصها بطل . إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا .

فقال له عثمان : — أخابر ، أم ساجع ؟

قال : — بل خابر (فلم يغزها عثمان أحداً) .

وفى أواخر سنة ٣٨ وأوائل سنة ٣٩ توجه إلى ثغور الهند الحارث بن مرة العبدى متطوعا بإذن أمير المؤمنين على ، وكان اتجاهه إلى أرض قيقان من بلاد السند عن طريق خراسان ، فظفر وأصاب مغنما ، وقسم فى يوم واحد ألف رأس . لكن الأمر انتكس عليه بعد ذلك فقتل ومن معه بأرض قيقان إلا قليلا ، وكان مقتله سنة ٤٢هـ .

الطلائع الأولى

وفى سنة ٤٤ وجه معاوية بن أبى سفيان إلى تلك الجهات قوة منظمة أكثر رجالها من الأزد معقودة اللواء لزعيمهم المهلب بن أبى صفرة ، فدخل أرض بنّة

(بين كابل واللتان) فشهدت تلك الأودية والجبال من بطولة رجال هذه الحملة ما يعد نموذجا لأمثالها فى الفتوح الإسلامية الأولى ، وفيها يقول أحد المجاهدين الذين ساهموا فى وقائعها :

ألم تر أن الأزد ليلة بيتوا بينة كانوا خير جيش المهلب

والظاهر أن حركات الإسلام العسكرية احتاجت بعد ذلك إلى المهلب فى مواطن أخرى ، فأرسل معاوية إلى ثغور الهند عبد الله بن سوار العبدى ، وهو من سراة الدولة الأموية وكرمائها وشجعانها ، فكان معسكره يتنقل فى البلاد وقد أعد :

للقى العدا بيض السيو ف وللندى حمر النعم

فقال فيه أحد شعراء معسكره :

وابن سوار على عداته موقد النار وقتال السغب

والسغب الجوع ، فكانت الآفاق التى ينزلها ابن سوار بجيشه لا تعرف الجوع ولا الجبن ولا التردد فى الحق والخير . وقد منع ابن سوار أن توقد فى آفاقه نار للطعام غير ناره ، فكان فى مسيره مبشراً بهداية الإسلام ، وكرم أخلاق العرب ، ومحققا للمثل العليا فى الحركات العسكرية النبيلة . ولم تطل مدة هذا المحارب للجوع وللباطل ؛ فقد قتله بعض الترك غيلة وكانت منيته فى تلك الديار . رحمه الله ورضى عنه

ولما بلغ معاوية خبر اغتيال ابن سوار أمر زياداً بأن يسير جيشا من العراق إلى الهند ، فبعث بقوة على رأسها سنان بن سلمة ابن المحبق الهذلى ، وكان فاضلا متألها ، ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام وضبط البلاد . ثم تولى هذه الجهة بعده راشد ابن عمرو الجديدى من الأزد . ثم جدّ الجد فى ثغور الهند فأرسل زياد ابنه عباداً وجعل طريقه إلى الهند من (سناروذ) إلى (كهز) حتى (روذبار) من أرض سجستان ، ومنها دخل الهند فنزل (كش) وأتى (قندهار) ففتحها ، وقد سجل الشاعر العظيم يزيد بن مفرغ الحميرى بطولة هذا الجيش بقوله :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم ومن سراهنك قتلى لاهم قبروا
بقندهار ، ومن تكتب منيته بقندهار يرجّمْ دونه الخبر

وأردف زياد بعد ابنه عباد قوة بقيادة أبى الأشعث المنذر بن الجارود العبدى ففتح (قُصْدار) ومات بها ، فقال أحد شعراء جيشه :

حل بقصدار فأضحى بها فى القبر لم يقفل مع القافلين
لله (قصدار) وأعنابها أى فتى دنيا أجنّت ودين

وتولى القيادة والولاية بعد فتوح الهند أيام عبيد الله بن زياد حرّى بن جرى الباهلى ؛ فاتسع فى الفتوح . ومن تلك الأيام رسخ الإسلام فى البوقان وافتخر أحد مجاهدى جيش ابن حرى بمواقفه فى الدفاع عن الحق فقال :

لولا طعانى بالبوقان مارجعت منه سرايا ابن حرى بأسلاب

الحجاج بن يوسف وجهاد الهند

ولما صار أمر العراق والمشرق إلى رجل الدولة الحجاج بن يوسف الثقفى ، كان ميدان الهند قد تحول من ساحة استكشاف واختبار عسكرى ، إلى أرض استقر الإسلام ببعض زواياها وصار له رجاء بالازدهار فيها ، فاستعمل الحجاج على هذه الجبهة العسكرية سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى ، وقتل هـذا فى حادث فردى ، فأرسل الحجاج مجّاعة بن سعر السعدى ففتح طوائف من قندابيل ، وخلد الشعر العربى جهاده بقول أحد المجاهدين معه :

ما من مشاهدك التى شاهدتها إلا يزينك ذكرها مجّاعا

ولـكن المنية لم تمهل هذا المجاهد غير سنة واحدة ، فدفن بمدينة مكران ، وخلف على القيادة فى الهند بعده محمد بن هارون بن ذراع النمرى . وكان فى جزيرة الياقوت من جزائر الهند نسوة مسلمات ولدن فى تلك الجزيرة من آباء من العرب المسلمين قدموا إلى الهند تجارا ودعاة قبل أن يصلها المجاهدون والفاتحون ، فأراد ملك جزيرة الياقوت أن يتقرب إلى القائد العربى محمد بن هارون النمرى وإلى أستاذه الحجاج ابن يوسف ؛ فأحضر سفينة ووضع فيها هؤلاء النسوة المسلمات وقال لمحمد ابن هارون :

ــ هذه هديتى إلى أميرك الحجاج بن يوسف .

ومخرت السفينة متجهة نحو سواحل العرب ، فخرج لهم قوم من ميد الديبل فى بوارج ، فأخذوا السفينة بمن فيها ، فنادت امرأة منهن ــ وكانت من يربوع ــ :

ــ يا حجاج !

وطار الخبر إلى الحجاج باستغاثتها ، فأجابها من وراء البحار والجبال :

ــ يا لبيك !

وكتب إلى الراجه داهر أمير الجهة التى وقع الاعتداء فى ساحلها يسأله تخلية النسوة ، فكتب إليه الراجه :

ــ إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم .

فأغزى الحجاج عبيد الله بن نبهان بلاد الديبل ، فقتل فيها شهيداً . واستطال الحجاج المسافة بينه وبين الهند ، فأمر والى عمان بديل بن طهفة البجلى بأن يسير بنفسه وبكل من عنده من رجال الحرب حتى يأتى الديبل ويؤدب طغاتها وعلى رأسهم الراجه داهر . وأسرع إليهم بديل بن طهفة بخطمهم بخيله وسيوف المجاهدين معه ؛ إلا أن فرسه نفر به وهو فى معمعة القتال فأطاف العدو به وقتلوه فكان الشهيد الثانى من القادة السادة المدفونين فى تلك الأرض .

أصغر قادة الدنيا سناً

ووصل النذير إلى الحجاج بمقتل قائده ، فنثر كنانته بين يديه واختار منها أصغر قائد فى الأرض يومئذ ، وهو تلميذه وابن عمه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن عمرو بن مسعود الثقفى ، وكان محمد بن القاسم هذا عندما وقع عليه اختيار الحجاج لهذه المهمة صبياً فى السادسة عشرة من عمره ، ولم يكن الحجاج يعبث أو يهزل ساعة توسم هذا الغلام بفراسته ، فالحجاج لا يعرف العبث ولا الهزل ، بل كان ملتهب القلب بنداء تلك العربية من بنى يربوع يوم هتفت « يا حجاج ! » وزاد قلبه سخطا وغضبا جواب الراجه داهر بأن البغاة على النسوة العربيات لصوص ، وزعمه أنه لا يقدر عليهم . ثم تحول الحجاج إلى نقمة إلهية على الشر وأهله لما جاءه خبر استشهاد قائديه عبيد الله بن نبهان وبديل بن طهفة ، فكان اختياره لهذا القائد وهو فى ميعة الصبا اختيار الخبير الذى يكتشف الرجولة فى قلوب أصحابها من قبل أن يعرفها أصحابها فى أنفسهم . وهكذا رمى الحجاج الراجه داهر بهذه الصاعقة القاصمة لظهور المبطلين ، الرحيمة بالوادعين والآمنين . ووقف فى دار إمارته فيما بين دجلة والفرات يترقب نجاح فراسته فى فروسية ابن عمه الصغير ، فكتب إليه — وكان بعيداً عنه فى أرض إيران — يأمره بأن يتخير من أبطال الحاميات فى الأصقاع الإيرانية من يقع اختياره عليهم ، واختط له خطة السير أولا إلى مدينة الرى ، وهى مدينة طهران الآن ، وجعل رياسة أركان حربه إلى أبى الأسود جهم بن زحر الجعفى ، وأمرهما إذا وصلا إلى شيراز أن يتريثا لأنه سيلحق بهما نجدات أخرى ، ولم يبلغا شيراز حتى دنت منها قوة انتخبها الحجاج من أشجع أبطال جيوش الشام ، وكانت لا تزيد على ستة آلاف فارس لكنهم يظنون بأنفسهم أن فيهم القدرة على افتتاح الكرة الأرضية وبسط سيادة الإسلام على كل من فيها لو أمرهم خليفتهم بذلك ، فانضم هذا الجيش الصغير إلى ذلك القائد

الطامل، وحرص الحجاج على أن يجهزهم بكل ما يحتاجون إليه، حتى الخيط والإبرة، وحتى الخل احتال الحجاج عليه فأتى بالقطن النظيف المحلوج وأمر بغمسه فى الخل الحاذق وجفف فى الظل حتى تبخر ماؤه وبقيت فيه مادة الخل مجففة، وعلمهم إذا احتاجوا إلى الخل أن يغمسوا القطن الجاف فى الماء فيكون منه بعد تصفيته أحسن الخل وأجوده.

وهكذا طارت هذه الحملة العسكرية الخفيفة بمددها المستوفية لحاجتها، القوية بعزائمها التى تهد الجبال، حتى اجتاز محمد بن القاسم الثقفى حدود إيران إلى الهند وانتقل من (مكران) التى كانت بيد المسلمين إلى (قنزبور) ففتحها، ثم إلى (أرمائيل) فاستولى عليها، ثم وصل إلى (الديبل) التى وقع منها العدوان على نساء العرب فوجد الحجاج قد أرسل إلى سواحلها سفنا بالرجال والسلاح والأداة والمؤن، فخندق محمد بن القاسم حول الديبل وركز جيشه رايات الإسلام على الرماح على طول الخندق الذى تحصن وراءه الأبطال الذين لم تر الدنيا بطولة أعظم من بطولتهم. وكان مما بعث به الحجاج إلى هذا الجيش منجنيق عظيم يسمونه (العروس) بلغ من ضخامته أن كان يحتاج إلى قوة خمسمائة رجل لقذف الصخور الضخمة منه إلى الحصون لتحطيمها. وكان فى مدينة الديبل (بد) عظيم هو صنم ذلك البلد يقوم عليه شبه منار يعلوه دقل طويل تخفق عليه راية حمراء عظيمة جدا إذا هبت عليها الريح أطافت بالمدينة. وكان الحجاج قد تلقى من محمد بن القاسم وصف ذلك من اليوم الأول الذى وصل فيه إلى الديبل، فكتب إليه الحجاج رسالة يأمر فيها بأن يقصر من المنجنيق قائمة وأن يوجهه إلى المشرق، ويقصد برميه الدقل القائم على الصنم. ولما فعل المجاهدون ما أشار به عليهم الحجاج فى رسالته تكسر الدقل من القذيفة الأولى، وسقطت راية (البد) ذليلة ممزقة؛ فحنق الوثنيون على الجيش المحاصر، وخرجوا لقتاله، وكان ذلك ما أراده الحجاج من توجيه قذيفة المنجنيق إلى منارة البد والراية القائمة عليه. فلقيهم محمد بن القاسم بأبطاله وأخذهم بالسيوف فمزقهم الله كل ممزق. وفيما كان الوثنيون فى رعب الهزيمة كان المجاهدون يتسلقون سلالم نصبوها على الأسوار فدخلوا المدينة وفتحوها عنوة. وبقى الدقل المكسور على منارة البد فى مدينة الديبل من أيام الحجاج بن يوسف إلى خلافة المعتصم بالله، ثم هدمت المنارة وما تحتها زمن المعتصم واتخذ من مكانها سجن للبلد.

وانتقل محمد بن القاسم من (الديبل) إلى مدينة (بيرون) التى نبغ منها أيام الأمير محمود بن سبكتكين حكيم الإسلام أبو الريحان البيرونى أعظم البشر عقلا فيما يعتقده المستشرق الألمانى سخاو، فكان من أثر دخول بيرون فى ملة الإسلام على يد



محمد بن القاسم الثقفي افتخار الحكيم الأعظم أبي الريحان البيروني بعربيته وإسلامه إلى درجة أنه كان يفضل أن يهجى بالعربية على أن يمدح بالفارسية .

مقتل الراجه داهر

وجعل محمد بن القاسم لا يمر بمدينة إلا فتحها ، حتى عبر نهراً دون (مهران) . فأيقن داهر من استسلام البلاد لهذا القائد الفتى أن الملك قد خرج من يده إن لم يجرب حظه للمرة الأخيرة فيجمع جميع قواه ويلقى المسلمين بوقعة فاصلة . وكانت تلك الوقعة ، يحضرها وهو على فيل وحوله الفيلة ، فاقتتل الفريقان قتالا لم يسمع بمثله على ما يقول أبو الحسن البلاذري ، وهو من أقدم مؤرخي الفتوح وأدقهم وأصدقهم . فما كان المساء حتى بات السيف العربي في أحشاء الطاغية داهر ، ويقول المدائني : إن قاتله من بني كلاب ، وسماه ابن دريد في كتاب الاشتقاق (ص ٢٣٦) القشعم بن ثعلبة الطائي ، ونقل البلاذري في فتوح البلدان (ص ٤٢٦) عن ابن الكلبي أنه القاسم بن ثعلبة بن عبد الله بن حصين الطائي ، وهو القائل :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

ويروي البلاذري عن منصور بن حاتم أن الهنود صوروا داهر وقاتله ، وصورتهما كانت في بروص ، وأنهم صوروا بديل بن طهفة وصورته كانت في قند ، وقبره بالديبل .

فلما تم لمحمد بن القاسم قتل داهر غلب على بلاد السند ، وانضمت السند إلى الوطن الإسلامي من ذلك اليوم ، ولذلك كانت نسبة الإسلام في أهلها الآن أعظم من نسبته في أي قطر من أقطار (دولة باكستان) التي أكتب هذا الفصل احتفالا بمرور الأسبوع الأول على قيامها رسميا .

الاستيلاء على ملتان

ومضى محمد بن القاسم يطهر أرض السند من سلطان الكفر والشرك ، إلى أن قطع نهر (بياس) إلى (الملتان) فقاتله أهلها قتالا شديدا ، وأبلى في ذلك زائدة بن عمير الطائي ، وانهزم المشركون فتحصنوا في المدينة ، ونفد زاد محمد بن القاسم وجيشه فأكلوا الحمير ، واستعانوا بالله فهداهم إلى مدخل الماء إلى المدينة ، فقطعوه عنها فاضطر المشركون الذين فيها إلى الاستسلام . وكان فيها (بد) تهدى إليه الأموال وتنذر له

النذور ويحج إليه أهل السند ، فجمع محمد بن القاسم ما هناك من الذهب والأموال وجعل يودعها فى بيت مساحته عشر أذرع فى ثمانى أذرع ، وكان جباة الأموال يلقونها فيه من فوهة فى سطحه ، فسميت الملتان (فرج بيت الذهب) وأحصوا ذلك المال فبلغ مائة وعشرين مليون درهم ، ولما أرسل به إلى الحجاج حسب ما أنفقه على حملة محمد بن القاسم فبلغ ستين مليونا ، فقال الحجاج : « شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ، ورأس داهر » .

عاقبة محمد بن القاسم

إذا كان من حسنات الحجاج أنه رجل دولة من الطراز الأول إلى حد أن الخلفاء الأولين فى دولة بنى العباس كانوا يحسدون عليه خلفاء بنى أمية من صميم قلوبهم . فقد كانت له سيئات لا يجوز لغير عمر بن عبد العزيز وأمثاله أن يشهروا بها ، لأن الساسة والمؤرخين من غير طراز عمر بن عبد العزيز لو كانوا فى مركز الحجاج لا يبعد أن يصدر عنهم الكثير من سيئاته ولا يستطيعون شيئا من حسناته ، وكان من حسنات الحجاج اكتشافه رجولة الرجال ، وتعهده الرجولة فيهم بالتربية والتشجيع ، فكانت الدولة فى زمنه غنية بالرجال الذين تتمنى مثلهم أعظم دول الأرض فى كل عصر ، إلا أن من سيئاته الإسراف فيما يحسن الاعتدال فيه . من ذلك تدخله فى شئون لا يسامحه التاريخ بالتعرض لها ، كإقحامه نفسه فى أمر ولاية سليمان بن عبد الملك العهد بعد أخيه الوليد ، فكتب إلى قائدنا البطل الفتى محمد بن القاسم أن يخلع سليمان باسم الجيش الذى تحت قيادته ، وما كان لمحمد بن القاسم أن يخالف الحجاج وهو أميره من جهة ورأس أسرته من جهة أخرى فضلا عن كونه مدينا له بوجوده السياسى فى الدولة .

وبعد أن أعلن محمد بن القاسم خلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد مضت الأيام وحلت سنة ٩٦ فتبوأ سليمان الخلافة ، ومن بديهيات الأمور معاقبة كل من له يد فى الخلع ، فصدر أمر الخلافة من دمشق بولاية يزيد بن أبى كبشة السكسكى على السند ، وحمل هذا الفتى البطل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب ، فقال محمد متمثلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قال البلاذرى : فبكى أهل الهند على محمد بن القاسم وصوروه بالكيرج (الجص) .

ولما وصل من السند إلى العراق كان الأمير على خراجها صالح بن عبد الرحمن وهو من موالى تميم ، وكان الحجاج قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لأن آدم كان يرى رأى الخوارج ، فانتهز صالح التهمة الموجهة من الخلافة إلى محمد بن القاسم فحبسه فى واسط وأساء إليه ، فقال محمد :

ولئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب فتية فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلا

وتغنى مرة وهو يتقلب فى محبسه :

لو كنت أجمعت الفرار لوطئت ... إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عك على أمير
ولا كنت للعبد المزونى تابعا ... فيالك دهر بالكرام عثور !

وأصدق ما وصف به محمد بن القاسم الثقفى قول حمزة بن بيض أحد شعراء بنى حنيفة :

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا من مولد

وقول غيره من معاصريه :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك فى أشغال

ذكرى محمد بن القاسم

وبعد فإنى إذا ذكَّرت قراء العربية بمحمد بن القاسم لا أذكرهم ببطل تسنَّم ذروة البطولة وهو فى ميعة الصبا ، ولكنى أذكرهم بحامل رسالة الإسلام إلى الهند ، حتى كان منهم للاسلام ربع عدد أهله فى هذا العصر أو خمسهم على أقل تقدير . وأجمل ما نذكر به هذا البطل عندما توج الله الدعوة التى حملها إلى الهند بإقامة دولة للاسلام فى الهند لعلها إذا أحسنت السير فى طريق الإسلام الصحيح أن تكون خير دولة عرفتها هذه البلاد العريقة فى القدم . وقد عرفنا مسلمى الهند أوفياء للاسلام ، ومن حسن وفائهم أن يحسنوا تأسيس دولتهم على قواعده لنخجل نحن من أنفسنا فنعود إلى قواعد الإسلام ونتخذ منها أساساً لأوضاعنا ومستقبل كياننا . والله الهادى .

سبحات فكر

لسعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

بين الحقيقة والخبر

قلّ أن أرى واقعة أو أشهد مجمعاً ثم أقرأ عنهما فى الصحف إلا وجدت زيدا أو نقصا، أو تحريفا أو كذبا.

فإذا قست مالم أشهد على ماشهدت يتبين أن أكثر الأخبار والأوصاف تشتمل على تغيير ظاهر أو نقص وتحريف على خطأ أو تعمد، وضلال على جهل أو علم. وإن الناس ليجنون فى عاقبة هذا ما يجنيه على الناس الكذب والباطل.

فليتق الله المخبرون والراوون ويتجنبوا التحريف والتبديل، ويجعلوا أنفسهم على تحرى الحق خالصا، ووصف الواقع بيّنا، ويتثبتوا قبل أن يقولوا، ويتحرّوا قبل أن يسجلوا. وليتهم القارىء المخبر أو الراوى ويحذر تضليله أو تهاونه أو نسيانه أو غفلته؛ ولا سيما فيما يزيد التهمة فيه عصبية الراوى وتحزبه، أو سيرة له فى التحريف والكذب، أو كلف عرف عنه بإثارة الفتنة، أو ولوع بالإغراب والإطراف. فكم أثار خبرٌ فتنة، وأضل راوٍ تاريخاً.

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين ».

من لم تشغله العظائم شغلته الصغائر

الفكر لايخمد، واللسان لايصمت، والجوارح لا تسكن.

فإن لم تشغلها بالعظائم شغلتها الصغائر، وإن لم تعملها فى الخير عملت فى الشر.

إن فى النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين، ونفوراً عن المكروه والشاق؛ فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورضها وسسها على المكروه الأحسن حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة . . .

علمها التحليق تكره الإسفاف ، عرّفها العز تنفر من الذل ، وأذاقها اللذات الروحية العظيمة تحقر اللذات الحسية الصغيرة :

إن فى النفوس رفعة وضعة ، وفيها عفة وشره ، وخير وشر ، وفجور وبر ؛ فأيقظوا فيها عواطف الخير ، وتعهدوا فيها جوانب البر ، ولا تدعوها لنزعاتها فتسف وتخلد إلى الأرض ، وترضى بالدنيـة ، وتسكن إلى الهين اللذيذ حتى يستعصى داؤها ، ويصعب شفاؤها .

الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم

دارت الحرب فى نهاوند بين المسلمين والفرس وكانت حربا طاحنة ختمت المعارك الكبيرة فى فتح إيران .

وكان عمر بن الخطاب يخرج من المدينة فى طريق العراق يرجو أن يلق بشيراً بالفتح ؛ يخرج كل يوم يسائل القادمين ماذا سمعوا عن المسلمين فى فارس .

وجاء البشير السائب مولى عفيف فسأله عمر فى لهفة : ماوراءك ياسائب فقال خيراً يا أمير المؤمنين ؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مُقَرّن فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم بكى فنشج حتى إنى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتفه .

هال عمر الخبر إذ كان النعمان قائد الجند ، وكان من خيار المسلمين ، وآدته المصيبة فبكى ونشج .

فلما رأى الرجل ما دها أمير المؤمنين أراد أن يخفف عنه حر المصيبة ، ويهون وقعها ، فقال يا أمير المؤمنين ما قتل بعده من رجل يُعرف وجهه : يعنى أن القتلى بعد النعمان من سواد الجند ليس فيهم قائد ولا زعيم معروف فلم يشغل عمر بكاؤه على النعمان عن إجابة الرجل ؛ عز على عمر أن يقال فى المجاهدين ماقتل منهم رجل يعرف وجهه قال عمر رضى الله عنه : ولكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ؟

نظرات في التربية

للأستاذ عبد العزيز عطية

المراقب المساعد للمنطقة التعليمية بدمنهور

السلوك وأثر الوراثة والبيئة فيه . العواطف . الشخصية الإنسانية المتكاملة

قدّمنا فى النظرة السابقة شرحاً موجزاً للوراثة والبيئة اشتمل على بيان كل منهما ، وبيّنا ما يورث ومالا يورث من الأخلاق والصفات والأفعال . وإذا كنا نريد بما نكتب فى هذه النظرات تكوين فرد صالح وجيل صالح يحيا فى الفضائل ويعيش بالأخلاق المهذبة الكاملة ؛ يتعاون على الخير ويألف الأخيار ، ويعيش فى ظل دينه القويم ينفذ تعاليمه ، ويتبع شرائعه ، ويجاهد فى نشر مبادئه وجمع الناس عليه ؛ أقول إذا كان ذلك مقصدنا فإننا فى هذا الموضوع نتكلم بحول الله فى السلوك الذى هو نتيجة الوراثة وثمرة آثار البيئة ثم فى العواطف والشخصية الإنسانية .

فسلوك الإنسان عبارة عن أفعاله الصادرة عن تفكير وروية وخلق . ولا تسمى الأفعال التى تصدر عن الإنسان بغير روية ولا تفكير سلوكاً لأنه لا يتحقق له غرض بمثل هذه الأفعال ؛ فكثيراً ما تكون مثل هذه الأفعال أعمالا منعكسة reflax aetlons كما ترى فى السعال أو العطاس أو سيلان الريق أو انقباض حدقة العين عند رؤية الضوء الشديد ، وكما إذا فوجىء الإنسان بحشرة غريبة فى حذائه وهو يلبسه ، أو إذا مر على عنقه مثلا جسم غريب ؛ إذ ذاك يتحرك العضو المدافع بدون روية لينجو مما دهمه . ومثل هذه الحركات التى لا قصد فيها حركات الأحداث الناجمة عن نشاط الجسم ؛ فالطفل لا يقصد منها شيئا ، وإن كانت هى تحقق غرضاً لا يعنيه الطفل .

والسلوك العقلى Bchaviour هو الذى يرمى به الإنسان إلى تحقيق غرض معين . فهذا الغرض هو الذى يتحرك فى نفس الإنسان فيدفعه إلى العمل . والدافع النفسى قد يتألف من عدة دوافع ؛ فالحصول على الغذاء يستلزم البحث عنه من أوجهه — بعد الحصول على ثمنه — بعدة أفعال فى أماكن مختلفة ثم يُعد فى المنزل مثلا بأيد مختلفة تحت تأثير دوافع أخرى داخلية حتى يتم الإعداد فيتناوله الإنسان بعد ذلك .

ومثل ذلك فى الملبس والمسكن وما يراد امتلاكه وهكذا. وفاعل الخير يحركه إليه منظر المحتاج وإحساسه بما يعانيه من جوع أو عرى فيجد فى نفسه ميلاً إلى إعطائه فينزع إلى ذلك فيتكون العمل. ومثله من ينزع إلى السرقة مثلاً فإن منظر المسروق يحرك فى نفسه ميلاً إلى اختلاسه فيتحين الفرصة ويختار الوقت ويجتهد فى الاستخفاء، ثم يختطف المسروق ويواريه ثم ينتفع به. وهكذا نرى عدة دوافع وعدة أفعال تحدث حتى يتم العمل.

والسلوك محكوم بالغرائز والاستعدادات التى فطر الإنسان عليها، وبالنزعات الفطرية أيضاً، ولا تظهر هذه إلا فى صورة أفعال. والأفعال محتاجة إلى قدرات مختلفة بها تبرز هذه الأفعال إلى حيز الوجود؛ فالعمل الغرزى إذن يحتاج إلى دفع وقدرة على إبراز العمل المندفع إليه وهذه القدرة قد تكون عقلية مثلاً؛ كالتفوق فى الدراسة أو الإخفاق فيها إذ قد يوجد الدافع إلى التعلم والرغبة فيه، ولكن المقدرة العقلية قد لا توصل صاحب الرغبة إلى مايشتهى؛ فيكثر من الإخفاق وإعادة دروسه مرة أو أكثر. وقد تكون القدرة جسمية مثلاً فيوجد دافع الغلبة فى الجرى أو الوثب أو الانتصار فى إحدى اللعب المشتركة ككرة القدم أو السلة أو غير ذلك فإذا مكنته قوته من الغلبة يكون قد أشبع هذه الرغبة بالانتصار، وقد لا تمكنه فيخفق وهكذا. فإذا تركت النزعات والغرائز لطبيعتها فقد تكون حادة ناشزة، وقد تكون ضئيلة ضعيفة. وفى كلتا الحالتين لا ينتفع الإنسان بها ولا تنجح فى الحياة؛ وإنما إذا حباه الله حالة وسطا وقام المربون على الحد من شذوذ الغرائز والنزعات، أو تقوية الضعيف منها نجح المرء فى حياته.

ولهذا كان عبء المدرسة والبيت ثقيلا حينما تكون خلقة المرء على حال غير معتدلة فقد تنجح طرق الإصلاح فيه، وقد يخطىء المربى هذه الطرق فيعيا الإنسان بحاله ويعيش سيىء الطالع نكد الحظ. وأمام المربى سبيل إعلاء الغرائز الشاذة القوية والسمو بها. ولا يتأتى ذلك بدون محاولات عدة وأفعال كثيرة يشغل بها ذلك المربى ليستغل الطاقة الجسدية الزائدة فى شىء نافع يلهو به عما أغرقته الطبيعة به من قوة جارفة زائدة على الحد المعقول. ذلك هو توجيه الشباب أو الغلمان حينما تطغى الغرائز والنزعات على سلوكهم إذ هم فى حرب مع الطبيعة؛ والمحارب يحتاج إلى المدد وإلى الصبر وإلى الإيمان بما يحارب من أجله. والمربى الحصيف هو المدد الذى يقذف بقوته مع قوة الخير التى فى الإنسان لتعلو على قوة الشر النفسية. وهنا يجد الصبر مجالا للثبات فى الميدان وتستبين أمام الحدث معالم الخير التى تقوم الحرب وتستعر نارها من أجله؛ فيندفع إلى هذا الخير

ويصبر على المقاومة وتكون النتيجة الفوز . أما إذا لم يُعد الشاب ولم يصبر والتوت به سبل الحياة عن الخير فهناك هلاكه ، وينقلب شريراً ولو إلى حين ؛ حتى إذا أدركته رزانة الرجولة وخمدت فى نفسه جذوة الصبا وقوته ، وخمدت نار الغريزة فإنها تتركه محطماً ضالا عقرته الحوادث وفوتت عليه الفرص فيندم ولات ساعة مندم .

ولنضرب مثلا حالة التلاميذ فى المدارس الثانوية فإنك ترى المراهق يحتقر النظام المدرسى ويعتدى على قوانينه ولايستمع للنصح ، ويعاكس زملاءه ويحط من أقدارهم ، ويسيطر على تفكيره نوع من الكبرياء الذى يخيل إليه أنه ذو عقل كبير وتفكير ناضج سليم ورأى سديد قد لا يصل إليه زملاؤه أو أساتذته .

فالشغب الذى تراه فى المدرسة والإضراب لسبب تافه أو بغير سبب ، والثورة على القانون ، والاعتداء على أدوات المعامل أو المصورات المدرسية أو الأثاث أو كتب المكتبة تجدها كلها نتيجة جموح الغرائز .

وعدم قيام الموجهين الصالحين الذين يقابلون هذه الأعراض بما يصلح لها علاجاً وهم على بينة من فعل غرائز السيطرة والاستعلاء والمقاتلة ، كما يدركون حاجات النفوس التى تستعر فى هذه السن .

وحاجاتها : الأمن والتقدير والنجاح والسلطة الضابطة والمجد وغيرها . ولا شك أن هذه الحاجات تلح إلحاحاً شديداً على نفس الحدث فتدفعه إلى نوع من السلوك يلائمها ويحقق له منها ما يرغب فيه ؛ فالخوف الذى كبته المراهق وهو طفل وغلام يظهر الآن على هيئة دفاع عن أمنه الذى كان يفقده لضعفه، وكان له على أعصابه ضغط شديد ؛ فيظهر من القوة والعنف ما ينفى عنه الضعف . وترى ذلك واضحاً فى تلاميذ السنتين الأولى والثانية الثانويتين فالمرح والعنف والعصيان وغير ذلك من مظاهر التلاميذ وقتذاك .




والتلميذ الذى يستعد لأن يكون رجلا يريد أن يشعر من حوله برجولته وقوته وشجاعته ولا بد له أن يفعل ما يلفت النظر إليه . ورغبة المراهق فى النجاح فى حياته المستقبلة التى بدأت طلائعها تظهر تحت عينيه ليشابه فى مستقبله الطبيب أو القاضى أو المهندس مثلا تجعله يندفع فى دروسه ويجهد نفسه فى إحراز معلوماتها وقد يشتط فى ذلك فينحرف عن الجادة فى معاملة أساتذته أو إخوانه ، والتلاميذ فى هذه السن يحتاجون فى قيادتهم إلى سلطة حازمة قوية تعرف ما يحسن أن يعاملوا به . وعلى كل حال فإنهم فى هذه السن يفيدهم إظهار السلطة أمامهم ليعرفوا الفرق بين الفوضى والنظام وبين

العبث والعمل . وهم فى كل هذه الأحوال يكونون بحاجة شديدة إلى إظهار المحبة لهم والحرص على مستقبلهم ؛ لتكون المعاملة الحازمة مبنية على الحب وإرادة الخير والنفع .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

وقد تنبهت وزارة المعارف المصرية إلى حالات التلاميذ فى هذا الطور من الحياة وعينت فى كثير من المدارس مشرفين اجتماعيين أخذوا يطبقون ما درسوه مع تلاميذهم ليحيلوا نشاطهم وأعمالهم وحركاتهم إلى نواحى الخير . وما تزال التجربة فى أولها ولعلها توفق فى اختيار من يكون من ذوى الكفايات الخلقية قبل العلمية ، ومن ذوى الشخصيات الجذابة المحببة ، ومن ذوى التدين الصحيح كى يمزجوا الدين بمعاملتهم حتى يستدرجوهم إلى معانى الخير وليبعدوهم عن مظان الفتنة ، لا ليتخذوا فرصة اختلاطهم على أوسع مدى بالتلاميذ فرصة لإزالة الفوارق ومنع التكليف ؛ فيجتمعون بهم على ضلالة ويعينوهم على الشر .

لما سبق يتبين أن الغرائز التى ينمو بها الطفل واليافع يجب ألا تترك تتفاعل مع الحياة العامة ، أو بعضها مع بعض فى نفسه دون إشراف على هذه الحركات إشرافاً من خبير بها ؛ ليعدل سير الغرائز ويقتفى أثرها لتكون السلوك متفقا مع الفضائل والأخلاق القويمة التى بينتها الشرائع السماوية ، وارتكزت فى الفطر السليمة . والمربى فى ذلك يمزج القول بالعمل ليكون القدوة والمثال ليمرن العقل والخلق والجسم عليها ولتنشغل الغرائز بما يعليها مقيدة غير مطلقة ، منقادة غير مهملة تدور فى دائرة اتفق المجتمع على أن ما فى داخل محيطها الخير وما اصطلح الناس عليه . إننا لا نعنى بذلك إلا إصلاح الطبيعة الإنسانية التى تسيطر الغرائز عليها إصلاحا يحد شرها ويستدر خيرها ، ولا نريد كبتها فإن فى الكبت أضراراً جسيمة كما فى إطلاقها لتعيث وتضرب فى مهامه الرذيلة .

العاطفة : سلوك الإنسان هو أعماله التى يرتبط بها مع نفسه ومع الناس . والسلوك هو مظهر الدوافع الداخلية فى نفس الشخص . وهذه الدوافع الفطرية هى مميزات الحيوان الناطق . وبما للانسان من عقل ينمو ويعظم بالتجارب وإصدار الأحكام على الأمور بعد المعرفة بها ، فإن هذه الدوافع الفطرية تنتقل من حال إلى حال ، وترتقى من درجة إلى درجة ، وتتركز بالتجارب اليومية والممارسة الكثيرة المتكررة

حتى تصير فى كثير من الأحوال عواطف نحو الأمور المختلفة ؛ وإذن فمعظم أعمال الفرد نتيجة لعواطفه المكونة من التجارب . وهذه مما ميز الله سبحانه الإنسان بها .

وليست العواطف إلا عادات خلقية آخر الأمر، فتبدأ بالممارسة والتكرار والتركيز حتى تصبح أمراً أثيرا عند الإنسان يلازمه فى حياته .

والعواطف تنقسم إلى خير وشر . نعم هناك عواطف تحت أسماء كثيرة : كعاطفة الاحتقار والتبجيل أو الصداقة أو الإعجاب بمن يحسن نوعا من الأعمال ، أو الكره لمن يشرب الخمر أو يأكل الربا أو يبخل بالمال أو نحو ذلك . كل هذه عواطف ولكنها جميعا إما لشيء محبوب ، أو لآخر مكروه . وفى كلتا الحالتين نجد العاطفة تتكون نحو شيء مادى أو معنوى ؛ فالذى يحب الأزهار أو الطير أو الصور أو التحف الفنية أو نحو ذلك تتكون عنده عاطفة مادية نحو هذه الأشياء . والذى يحب الصدق أو العدل أو الكرم أو نحوها تتكون عنده عاطفة معنوية نحو كل أمر من هذه الأمور . وهذه هى طبيعة الحياة ؛ لأن الإنسان يختلط بكل ذلك فى حياته اليومية وليس الإنسان جامدا بل فيه كل عوامل التأثر ، وبذلك تتأثر حياته كلها بما حوله .

والعواطف المادية الفردية والجمعية خطوة أولى لتكوين العواطف المعنوية . فالعاطفة الفردية تتكون نحو شيء بذاته كالعاطفة التى تنصرف لحب الكلب أو القط أو الحمام . والعاطفة الجمعية هى التى تتكون نحو الكلاب جميعاً أو الأزهار أو أنواع الطير وهكذا .

وعاطفة الرحمة تتكون من معاملة الإنسان أو الحيوان بالرفق واللين ، وعاطفة حب الجمال تتكون من حب الأزهار أو التحف الرائعة أو الصور الفنية أو صفات الخير الجميلة . وعاطفة الإعجاب بالشعر أو الرسم أو الموسيقى تتكون من قراءة الشعر ونقده ومن ممارسة الرسم وإدامة النظر فيه ، وكذلك الموسيقى .

من هذا نرى أن هذه العواطف الطيب منها والخبيث تجعل للحيـاة الإنسانية استقراراً، وهى التى تفرقه من الحيوان أو الطفل الموزع التفكير ، وهى التى تجعلنا نتنبأ بمستقبل الفرد . وعلى كل حال فإن حياة المرء رهن بما ركب فيه من استعداد : فإما إلى الخير وإما إلى الشر « وهديناه النجدين » ومن غلبت عليه عواطف الخير كان سعيداً، ومن غلبت عليه عواطف الشر كان شقيا . وكل منهما يتدرج فى سعادته أو شقاوته حتى يصل إلى درجة المصلحين أو الشياطين .

الشخصية الإنسانية : لا شك أن للانسان ناحيتين فى حياته : ناحية ذاتية تعبر عن مجموعة تصرفاته الفردية المتسببة عن بواعثه النفسية الداخلية ، والتى يتحرك بها جسمه وتتحدد بها أعماله ،وتتميز بها صفاته الجسمية والمزاجية ، وتظهر بها عواطفه واستعداداته ومقدرته العقلية . وناحية أخرى اجتماعية ؛ وهى التى تتكيف بها أفعاله ومعاملاته مع المجتمع الذى يعيش فيه . هاتان الناحيتان مرتبطتان تمام الارتباط ومتداخلتان تمام التداخل ، وكل منهما تؤثر فى الأخرى تأثيراً قويا . وبمظاهرهما وأحوالهما المنوعة تتكون شخصية الفرد التى تتدرج فى النمو والتكامل منذ نشوئه حتى يصير إنسانا يستطيع الحياة مع الناس . وبقدر هذا التوافق الذى يبلغه فى مراتب السن ومراحل الحياة يكون التئامه أو اختلافه مع المجتمع .

فالغرائز التى تحث الإنسان على الأعمال المختلفة والعواطف التى تميل به فى ناحيتى الخير أو الشر ، والنزعات التى تدفع الإنسان دفعا إلى عمل دون عمل تعتمل كلها وتحاول أن تبدو فى أعمال الإنسان وتصرفاته ؛ فيحيلها العقل إلى ميزانه ويكبت منها ما لا يراه حسنا ، ويدفع منها إلى الوجود ما يراه جميلا . هذا الوزن وهذا الكبت وهذا الإظهار ليس إلا نتيجة للصراع النفسى Mintal Confleet الذى لا بد منه فى داخل الإنسان عندما يهم بعمل هام . نعم ليست نتيجة الصراع النفسى دائما أن تبدو أعمال المرء كلها جميلة حسنة ،وإنما قد تكون نتيجته أن تتغلب عوامل الشر فى نفس الإنسان على عوامل الخير فيأتى أعمالا قبيحة منكرة ، سواء أكان ذلك وهو مستخف عن أنظار الناس ، أو كان بمرأى منهم، بحسب شناعة الأمر الذى يأتيه أو قبحه قبحاً يسيراً ؛ فالسارق الذى تتغلب عليه غريزة التملك يستحى أن يسرق فى غالب الأمر إلا مستخفيا ، والشخص الذى لا يستطيع أن يمنع لسانه إيذاء الناس بالشتم والسب أو العبارات الوقحة يؤذى الناس جهرة بلسانه . وعلى كل حال فنتيجة الصراع النفسى مرتبطة دائما بالعاطفة السائدة والميول والنزعات الغالبة على الشخص . ولذا نجد الناس يختلفون فى أعمالهم وتصرفاتهم بحسب ما يغلب عليهم من النزعات .

وليست التربية إلا تغليباً لعوامل الخير على عوامل الشر وتبصير العقل الإنسانى بما يصيبه من الأذى إن هو اتجه إلى الشر، وبما يصيبه من الخير إن هو ذهب إلى طريق الخير . ومن هنا كان واجب الآباء والأمهات والمعلمين فى المدارس أن يراقبوا الأبناء فى تصرفاتهم حتى يجعلوها بمأمن من الشذوذ أو الغلو ، وأن يكونوا قدوة حسنة لهم فى الأقوال والأفعال ، وأن يخضعوا أنفسهم إلى مبادىء الأخلاق الكريمة والتدين

الصحيح ؛ حتى ينشئوا جيلا ربانيا يعرف واجبه الوطنى الدينى معرفة حقة ، ليشاركوا المصلحين والأنبياء فى عملهم الذى ينحصر فى إظهار الخير العام والعمل له ، واقتلاع جذور الفساد من النفوس .

ومع ما فى النفوس من الميل إلى الشر ، فإن فيها عواطف خيرة تساعد على انتشال المرء من وهدة الإثم ؛ كما فى عاطفة اعتبار الذات التى قد تنمو فى المرء فتجعله يترفع عن الإثم الذى يتدلى به إلى مستوى الأخساء الأدنياء الذين يلوثون أنفسهم بجرائمهم . فهذا الاستعلاء على مستوى الجريمة والترفع عنها فيه وقاية من السقوط يحول بين الإنسان والعبث ، وتتدرج هذه العاطفة الجميلة بتدرج الإنسان فى حياته فالطفل الذى تمر به تجارب عدة تترك فى نفسه آثاراً ينتفع بها ، حتى إذا تكررت هذه التجارب قد يعتبر بها فلا يقع فيما وقع فيه من قبل ، وهو كلما تقدم فى السن وكثرت معلوماته ونما عقله يحسن الحكم على الأفعال ونتائجها فيصير أكثر عقلا وحكمة ورزانة وتكون أفعاله أكثر ميلا إلى الخير . وما يزال فى الناس من تثمر فيهم هذه التجارب ، وينتفعون بالتذكير والتعلم حتى يظهر منهم المصلحون وأهل الرأى والقادة .

نسأل الله أن يبصر الناس بطرق الخير ويجنبهم مسالك الشر .

كيف لا

عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه !

« أبو ذر »

مع العارفين

الإمام الممتحن : أحمد بن حنبل

أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ،
مانقوى على مايقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد .

« يحيى بن معين »

نعم لقد أيأس أعلام عصره أن يجروا فى مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الورع والخشونة التى قدرت له ، حتى قال يحيى بن معين كلمته التى فى صدر هذا الحديث .

ولقد حاولنا فى العدد الماضى أن نصور ورعه وحرصه الشديد على ملازمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : « وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدق من الحبل ، وتحته هوّة سحيقة مهلكة كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه ، وجده فى الاستمساك به ، وحذره أن يميل يمنة أو يسرة ، وخوفه أن يسقط إلى الهلاك الفاغر فاه تحت قدميه ، فذلك هو أحمد بن حنبل فى صدق متابعته للظاهر الثابت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ورع وجد ووقار ، حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه فكبر فى نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته » .

ومذهبه الناصع الواضح الذى بناه على تلك المتابعة معروف للناس ، مستفيض ذكره فيهم ، وما زال كثير ممن يرضى لدينه نصاعة الحجة وسلامة البرهان يتبع ذلك المذهب إلى اليوم فى ثقة وطمأنينة .

ولكننا اليوم لسنا بصدد مذهبه فى الفقه والأحكام ؛ وإنما بصدد مذهبه فى الورع العميق ، وتجريد معيشته من كل شبهة ، بل من ظل أى شبهة تغض من نصاعة الحلال فى رزقه ، وصبره على ذلك صبرا أيأس أعلام عصره أن يجروا فى مضماره حتى لم يجدوا حرجا أن يقولوا « والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد » ،

كان يملك من دنياه دارا يسكن بعضها هو وأهله وبنوه ، ويؤجر سائرها فلا يكاد الإيجار يفى بمطالب الكفاف من معيشته .

والكفاف فى المعيشة أمر اعتبارى يختلف مستواه لدى الأفراد باختلاف ما تطيقه

نفس كل منهم من الصبر على الخشونة وضيق العيش وقلة الموجود ؟.. ولقد كان كفاف بعض الأئمة يعتبر من أوسع السعة إذا قيس بالكفاف الذى صبر عليه إمامنا الجليل رضى الله عنه ؛ فلقد روى ابنه عبد الله فيما روى من أخبار أبيه بعد المحنة أنه أدخل دار المعتز وفى قدميه خف « قد أتى عليه له عنده نحو من خمس عشرة سنة مرقوعا برقاع عدة » .

ولقد حج رضى الله عنه حجتين راكبا ، فكم تقدر له من نفقة فى كل حجة ؟ كم تقدر لشخص يحج من بغداد عاصمة العراق إلى الحجاز ، ثم يعود لوطنه فيما يتراوح بين أربعة وستة أشهر ..؟ لقد حدَّث ابنه عبد الله أنه أنفق فى إحدى هاتين الحجتين عشرين درهما لا غير ! فإذا رأيت فى ذلك مستوى من الكفاف لا تكاد تطيقه نفس ، فاعلم أنه مستوى يصور لك بعض السعة فى حاله ، أما حقيقة مستواه فتصوره حجاته الأخرى ، إذ لم يجد فى سعته نفقة الركوب فحج خمس حجات ماشيا وهو إمام جليل يشار إليه بالبنان .

ولقد شرَّق ذكره وغرب ، وأقبل عليه وجوه الناس ، ورغبوا فى صلته بأنواع البر والهدايا ومنح المال ، فما ترخص فى ورعه وما أدخل على زهده منَّة لمخلوق قط ، فعاش كما قلنا طودا سامقاً تغيب فى زرقة السماء كواهله الرفيعة قبل أن تصل العيون إلى غاية ذراه .

كان يتردد عليه شاب من الصيارفة فناوله يوما درهمين ليشترى له بها كاغدا ؛ فاشتراه الشاب ووضع فى جوف الكاغد خمسمائة دينار ، وشده وأوصله إلى البيت ؛ فلما رجع الإمام سأل عن الكاغد فدفعه إليه أهله فما إن فتحه حتى تناثرت الدنانير ، فردها فى مكانها منه ومضى إلى الشاب فوضعها بين يديه ، فتبعه الفتى وهو يقول : الكاغد اشتريته بدراهمك ، فخذه دون الدنانير ، فأبى أن يأخذ الكاغد أيضا !! .

ولقد وجه إليه صديقه الحسن بن عبد العزيز ثلاثة آلاف دينار ، قائلا له مع الرسول : يا أبا عبد الله هذه من ميراث حلال من مائة ألف جاءتنى من مصر ، فخذها واستعن بها على عيلتك ،فأبى .. فألح عليه الرسول — وهو أخو الحسن — فلم يقبل فقال الرسول فى نفسه : لعلى لو أخبرته أنها ثلاثة آلاف قبلها ، فقال له : يا أبا عبد الله إنها ثلاثة آلاف ، فلما سمعها قام وتركنى .

وأرسل إليه أحد الصلحاء الأخفياء رسالة — لم يذكر فيها اسمه — مع رجل صالح يرجوه فيها أن يقبل أربعة آلاف « لتقضى بها دينك وتوسع بها على عيالك »

قال ابنه صالح: «وكنا فى أيام الواثق، والله يعلم فى أى حالة من الضيق نحن» فدخلت إلى مكان أبى — وكان خرج لصلاة العصر — وقد كان يجلس على لبد قد أتت عليه سنون كثيرة حتى بلى، فرفعت اللبد فوجدت كتاب الرجل الصالح.. قال فلمّا عاد أبى سألته عن هذا الكتاب فاحمر وجهه وقال لقد أخفيته منك... ثم قال له «تذهب بجوابه إلى الرجل الذى جاءنا الكتاب على يده» فحملت الجواب وفيه «أما بعد: وصل كتابك إلىّ، ونحن فى عافية، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا فهم فى نعمة والحمد لله» فقال لى الرجل: «ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشىء ورمى به — مثلا — فى الدجلة كان مأجورا لأن هذا الرجل ممن يسترون معروفهم فلا يدرى به أحد»... قال صالح: فلما مضت سنة ذكرنا ذلك فقال أبى: لو كنا قبلناها لما كان معنا الآن منها شىء إلا مِنَّة الناس علينا!!

ولم يكن ذلك فى تلك الأيام الناضرة مما يغض من قدر أحد لو أخذ، فهو مما يتقرب به الناس إلى الله لمن فرغوا نفوسهم لبيان التدين وتوضيح مناهجه وطرائقه وإن ما يدفعه الأغنياء فى ذلك لقليل بجانب ما يبذله العلماء من عصارة القلب وأشعة الذهن.. ولكن إمامنا الجليل رضى الله عنه رأى ضيق الدنيا ليس بضيق، ومحنة المرء فى عيشه ليست بمحنة إذا سلم له يقينه، ورأى نعمة الله عليه أجل من أن تزاحمها فى الشكر نعمة لآخر كائنا ما كان، فلم تمتد منه نظرة واحدة إلى ما عند سواه.

ولقد كان تراحم الأئمة أن يصل أولو الفضل منهم والسعة من كان منهم فى ضيق وشدة، ولقد كان لإمامنا الليث رضى الله عنه سنن مأثور فى ذلك، إذ كان لا يقطع بره عمن يعرف من أكابر الأئمة وأهل العلم، وكان هؤلاء رضوان الله عليهم — وفيهم الإمام مالك — لا يرون بأسا فى قبول ما يصلهم به أخوهم؛ ولكن أحمد رضى الله عنه آثر لنفسه نهجا آخر حدّث عنه فقال: «عرض على يزيد بن هرون — المحدث الجليل بواسط وكان من المياسير — خمسمائة درهم فلم أقبل منه، وأعطى يحيى بن معين وغيره فقبلوا منه».

ولقد كان الخلفاء يرون أن يعينوا فقراء الأئمة ورجال الحديث من بيت المال، وكان لا حرج على أحدهم أن يأخذ؛ فهو مما ينفق فى سبيل الله ويعين على التفرغ لأقدس واجب، ولكن إمامنا الفذ لم يرض لنفسه أن يمد يده! قال إسحاق ابن موسى الأنصارى: دفع إلىّ المأمون مالا أقسمه على أصحاب الحديث، فإن فيهم ضعفاء؛ فما بقى منهم أحد لم يأخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى».

قال له ابنه صالح : يا أبت : إن أحمد الدورقى أخذ ألف دينار ؛ فقال : « يا بنى ، ورزق ربك خير وأبقى » . . وذكر عنده رجل فقال : « يابنى الفائز من فاز غدا ولم يكن لأحد عنده تبعة » .

ولم يكن الإمام يذوق — مع هذا الفقر — كربا تضيق به نفسه ، وتظلم معه الدنيا فى عينيه ، بل كان يجد فى ضيق العيش أوسع السعة ، وفى ظلام الكربة آفاقا من الضياء والرضا ، قال ابنه عبد الله : ذكر الفقر عند أبى فسمعته يقول : « الفقر مع الخير » .

وهذا كلام جليل لا يصف خاطراً مر بالنفس ، أو طيفا ألم بخيال صاحبه ، بل يصف حقيقة مستعلنة فى سريرته ، ومواجيد يذوق طعومها فى خفية نفسه . .

والناس ضربان : ضرب يعيش فى عيشه ، وآخر يحيا فى حقيقة نفسه . . فالأولون هم الذين يذوقون مسراتهم أو يلعقونها من خلال ما بأيديهم من رزق قليل أو كثير ، فإذا لذّه المرعى قال ربى أكرمن ، وإذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه قال ربى أهانن ، فوجوده وجود الرغيف والقميص ، وجذوره لا تتصل فى الحياة بغير هذين . . وأما الآخرون فهم الذين انتقلت أذواقهم من المحيط الظاهر التافه إلى معين الحق القوى الجميل ، وامتدت مشاعرهم إلى ضمير هذا الكون ؛ فاستروحوا بقدس الله فرحا بغير مال ، وأنسا بغير أهل ، وجاها بغير منصب ، وسعادة بغير مصدر محسوس ؛ فإذا ذكر فضل الله فحدث ما شئت عن نشوة الطرب ، وإذا ذكرت الدنيا فقد ذكرت السلعة المزجاة ، والعرض الكاسد المردود ، وذلك هو الذى عرفه الناس من حال أحمد وتكلموا به ؛ قال أبو داود السجستانى : لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ؛ لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذكر العلم تكلم » .

ولعل أحدا أن يقول لنا : وأين الصبر الذى ادعيتموه لأحمد ، وزعمتم أنه متجدد الطاقة لا ينفد له مدد ؟ . . ونقول : إن هذا الذى نصف هو الصبر ؛ وليس للصبر معنى أو حقيقة إلا هذا الذى نجلوه من خصائص أحمد بن حنبل ! . . فالصبر صفة أو معنى تتماسك به النفس فى كل موقف من مواقف المحنة أو النعمة ، فإذا بها تؤدى للحق فى كل موقف ما يجب عليها له .

أو هو روح من أمر الله يمسك المرء أن ينساق مع مشاعر الحياة الدنيا

فلا يعبث به الأسى على فائت ، ولا يستخفه الفرح بما يذوق من نعماء ، ويجعله أكبر من كل ما يعتريه من فتن العيش ؛ فإذا كان فى محنة رأى نفسه فلم ير فيها إلا أنها فرصة من فرص التطهر والتطور إلى ما هو أحسن ، وإذا كان فى سعة لم تخرجه السعة عن طوره لأن ما يرد على قلبه من سعة فضل الله أعز وأهنأ . وذلك من أصدق ما قرره القرآن الكريم من خصائص أهل الصبر : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

ولقد استعلنت تلك الصفة فى نفس أحمد رضى الله عنه إلى جانب ما استعلن من صفات ؛ فكانت القوة التى غالب بها التيار ، وظهر بها على كل مشقة ، وبفضلها اجتاز كل محنة ، وخرج من كل شدة أصفى ما يكون معدنا على حد ما قال بشر بن الحارث : « أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهبة حمراء » .

فالصبر هو القوة الغالبة التى تطفو بصاحبها دائماً على كل حادث من محنة أو منحة ، فيصرّف هو كل حادث ، ولا يدع الحادث أن يصرّفه ، لا يلتفت قلبه لشىء من ذلك ، ولا يرى فى كل حال إلا وجه الله جل ثناؤه . . وتلك هى الصفة التى كان يعيش وجدان أحمد فوق بساطها .

ومن فوق بساط تلك الصفة كان أحمد رضى الله عنه يفرح بالفقر ، بل يفرح بخلو يده من عرض الحياة الدنيا ؛ قال ابنه صالح ، قال لى أبى يوماً : يا بنى « أنا إذا لم يكن عندى قطعة أفرح » . . . وهو تعبير دقيق يلم بمعنى أصيل ؛ فأرباب القلوب حين ينصرفون عن المال لاينصرفون عنه فحسب ، بل ينصرفون إلى ما هو أربح وأوفر مغنما ، فلهم فى وجه الله ثقة تعظم وتستفيض كلما خلت أيديهم من عرض هذا الأدنى ، فيجدون لها روعة وحلاوة وثباتا إذ صاروا من فضل الله وكلاءته وجهاً لوجه ، ولله معهم — حينئذ — من تصاريف اليسر ما يضحك سرائرهم ، فلا يدرى أحدهم أيضحك لما ذكره الله به من يسر ، أم لأن اليسر ورد عليه من باب لم يرد بحسبانه ولم يخطر له على بال ؟ . . . إن أرباب هذه الحقائق يشعرون فى قرارة نفوسهم أن فضل الله يُحجب عن قلوبهم بالقليل الذى فى أيديهم ؛ فإذا زال ذلك القليل تفتحت مصاريع القلوب وأقبل فضله سبحانه على سعته فغمرها ثقة لا حدّ لها ، وثباتاً لا يجده أقوى الناس بماله ، فإذا قال أحمد : إن الفقر مع الخير ، وإن الفرح

يأتيه كلما خلت يده من المال ، فهما قولان ينبعان من مشكاة واحدة ويتظاهران على تأييد معنى واحد : هو حياة المرء فى حقيقة نفسه ، لا فى تفاهة القشرة الظاهرة من عرض هذه الحياة الدنيا .

***

ومن خلال هذه الحقيقة تشبث أحمد بالحلال ، ووجوب السعى فى طلبه ، وتجريده من كل شبهة ، وذهب فى ذلك إلى أبعد مدى يمكن تصوره ، ولم يجد ما يصفه لكسب طمأنينة القلب وسعادة النفس إلا كسب الحلال على النحو الذى يدركه هو ويسطع معناه فى يقينه ؛ قال عمر بن صالح الطرسوسى سألت أحمد بن حنبل : بم تلين القلوب ؟ . . . فنظر إلى أصحابه — وكأن السؤال أعجبه — فغمزهم بعينه ، وأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يا بنى ؛ بأكل الحلال .. قال فمررت ببشر بن الحارث فسألته : بم تلين القلوب ؟ فقال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فقلت له لقد جئت الآن من عند أبى عبد الله فقال : هيه . . إيش قال لك أبو عبد الله ؟ قلت قال: بأكل الحلال ، فقال:« جاء بالأصل » ... فمررت بعبدالوهاب بن أبى الحسن فسألته : بم تلين القلوب ؟ قال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » قلت : فإنى جئت من عند أبى عبد الله ، فاحمرت وجنتاه من الفرح وقال لى : إيش قال لك أبو عبد الله ؟ فقلت قال : بأكل الحلال : فقال : جاءك بالجوهر ؛ جاءك بالجوهر ؛ الأصل كما قال ؛ الأصل كما قال ! !

أما تصوره لصفاء الحلال ، وتحريه أن يكون عيشه كما فهم وتصور ؛ فيطالعنا من أكثر حالاته وتصرفه مع الناس . . وقع منه مرة مقراض فى بئر فجاء أحد ساكنى داره فأخرجه ، فناوله أحمد نصف درهم فقال الرجل : المقراض لا يساوى إلا قيراطا فكيف آخذ على إخراجه ستة قراريط (نصف درهم) ؟ لا آخذ شيئا ؛ ... ولكن هل سكت أحمد على ذلك ؟ هل رضى لكسبه أن يدخل عليه ذلك النوع من الاستغلال ؟ . . . لقد انصرف الرجل وهو يعتبر المسألة منتهية ؛ إذ لا تستحق فى تقديره أن يقيم لها أى وزن ، بل لعله كان يعتبر من البركة أن وفقه الله لأن يقضى للامام هذه الحاجة اليسيرة .

أما أحمد فلم ينصرف من المسألة ، ولم ينته منها كما انتهى الرجل فظل يفكر ، فلما كان بعد أيام قال له : كم كراء حانوتك فى الشهر ؟ قال : ثلاثة دراهم . . قال : كم شهرا عليك من الكراء ؟ قال ثلاثة أشهر ، فضرب أحمد على حساب الرجل وقال له قد

وضعت عنك دينك وأحللتك مما عليك . . وبذلك أزاح أحمد عن قلبه تلك الشبهة التي أقلقت باله أياما .

ولقد كان في سفرة ، فنفدت النفقة من أصحابه ، فعُرِض المال عليهم فأخذوا ، أمّا هو فعرض فروة له وقال من يبيع هذه ويجيئني بثمنها فأتسع به ؟ قال حمدان الواسطي فأخذت صرة دراهم فمضيت بها إليه ثمناً للفروة ، ولكن أحمد لم يقبل أن يكون في ثمن فروته ظل لصدقة ، فرفض الصرة . . فعاد الرجل بالفروة ، فقالت له امرأته إنه لم يرضها ، وهو رجل صالح فاعطه ضعفها ، فأضعفها له ، فلما رأى أحمد إلحاح الرجل في بذل المعروف ثمنا للفروة جذبها منه وخرج . . . ولعل الصبر على الفقر وعلى طلب الحلال يطالعنا مجلوا ساطعا من خلال هذين الحادثين أروع وأجلى ما يكون .

يكن العلم يومئذ يقاس لدى القوم والناس بالشهادات ، والألقاب ، بل بالسياحة في بلاد الله والرحلة إلى مختلف الأقطار النائية للقاء الرجال والسماع منهم والتلقي عنهم وأخذ ما عندهم ، ولم يكن يدخل في عداد أهل العلم من لم يلق العشرات من شيوخه ولم يرحل في طلبه إلى الأمصار المختلفة . . ورحل أحمد رضى الله عنه ليلقى أئمة الحديث والأخبار الصحاح ، رحل ماشيا إلى طرسوس بأعلى بلاد الشام ، ورحل إلى اليمن ليلقى بها محدثها الكبير عبد الرزاق ماشيا . . وليس صبره على المشيء بغريب عليك فقد علمت مما سبق أنه حج خمس مرات ماشيا ، ولكن الذى نريد ذكره في رحلته لعبد الرزاق ، أن نفقته انقطعت في الطريق ، فعرض عليه أصحابه المواساة فلم يقبل من أحد شيئا ، وأكرى نفسه حمالا مع الحمالين ليأكل مما يخدم به القافلة ؛ فإذا كنت لا تملك نفسك من إجلال ذلك الإمام الراحل ماشيا في طلب العلم فلا يفوتنك ملاحظة الصفاء الذى سما إلى مستواه في كسب الحلال .

قال عبد الرزاق : قدم علينا أحمد بن حنبل ، فأقام سنتين إلا شيئا ، فقلت له يا أبا عبد الله : خذ هذه الدنانير فانتفع بها فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب فقال : أنا بخير . . ولم يقبل مني !

وقال سليمان الواسطي : بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه حين أراد الخروج من اليمن ، فلما خرج وليس معه شيء عرض نفسه على الجمالين ليكرى نفسه منهم في خدمة القافلة ، فلقي من المشقة في خدمته ومشيه ما لا بد أن يلحق مثله في سنه ؛ قال أحمد بن إبراهيم الدورقي : لما قدم أحمد بن حنبل علينا

مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوبا وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ؛ فقلت: يا أبا عبد الله ، شققت على نفسك فى خروجك إلى عبد الرزاق ! فقال : ما أهون المشقة فى جنب ما استفدنا من عبد الرزاق ! !

وإنى أدع لك أن تتصور الجلالة التى يجب أن يضفيها على أحمد بن حنبل هذا المنهج الرائع من الورع والتقى والصبر على المشقة فى سبيل الله والدقة فى تحرى الحلال والاستبراء لعيشه من كل شبهة . . إنها جلالة سمت به حتى فاق كل أقرانه ، وغرست هيبته فى كل نفس حتى سعى الجميع إليه بالتكرمة والمودة ، لما نزل القوم صنعاء — وفيهم أحمد — نزلوها ليلا ، فألفوا عبد الرزاق جالساً فى موضع ، فجلسوا إليه ، ولم يكن من عادة العلماء يومئذ أن يحدثوا من محفوظهم شيئا إلا والمرجع معهم ، ولم يكن المرجع ساعتئذ مع عبد الرزاق ، ولكنه أراد أن يحسن لقاء أحمد بتحية طيبة فأملى على القوم سبعين حديثا من حفظه . . قال أحمد بن حنبل ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئا إلا المجلس الأول ؛ وذلك أنا دخلنا عليه بالليل فأملى علينا سبعين حديثا ثم التفت إلى القوم وقال لولا هذا — وأشار إلىّ — ما حدثتكم ! !

ولقد أرسل إليه أحد الخلفاء صلة من المال فامتنع وردها رداً حسناً . . ولقد يكون فى ذلك نوع من الورع والترفع وتحرى الحلال ، ولكن ستعود إلى التحليق فى آفاق الإمام العليا حين تعلم أن عمه وابنه صالحا قبلا تلك الصلة — بدون علمه — تحت ضغط الفقر ومطالب العيال ، فلما علم رضى الله عنه ، هجرهما ورعًا وتأثراً ، وأمر بجدار فصل بينه وبين ابنه صالح ، وامتنع من الصلاة خلف عمه . . ولم يكن عندهم دقيق — يوما من الأيام — فاستسلف دقيقاً وأمر بعجنه وخبزه ، فقدم إليه بعد قليل مخبوزاً ساخنا فعجب لتلك السرعة ، فأخبروه أن فرن دار ابنه صالح مسجور للخبز ، وأنهم خبزوه فى ذلك الفرن ، فلما سمع ذلك كف عن الطعام وأمر برفعه تحرجا وتوقيا من الشبهة ؛ لأن ابنه أكل من جوائز الخلفاء ! ! .

يا أخى : إذا لم يكن لمثل هذا الإمام الجليل المراتب السنية عند الله ، والمنازل الرفيعة ، فلمن تكون ؟ وإذا لم يكرمه الله بقبول دعائه إذا دعا لمريض أو مسكين فلمن يستجيب الدعاء ويجرى الكرامة ؟ قال رجل من أهل بغداد كانت أمى مريضة مقعدة زمنة فقالت لى يوما : اذهب إلى أحمد بن حنبل فاسأله أن يدعو الله لى ، فسرت إليه فدققت عليه الباب وهو فى دهليزه فلم يفتح ، وقال من هذا ؟ قلت : أنا رجل من أهل ذاك الجانب سألتنى أمى وهى زمنة مقعدة أن تدعوا لها الله . فسمعت كلامه كلام

رجل مغضب : نحن أحوج إلى أن تدعو هى الله لنا ! ! فوليت منصرفا ، فخرجت امرأة عجوز من داره فقالت أنت الذى كلمت أبا عبد الله ؟ قلت نعم . قالت : قد تركته يدعوا الله لها . : قال فجئت من فورى إلى البيت فدققت الباب فخرجت أمى على رجلها تمشى حتى فتحت الباب ، فقالت : قد وهب الله لى العافية .

واجتمع المجلس يوما فى دار يحيى بن معين فقال يحيى فيما قال : مارأيت مثل أحمد ابن حنبل ؛ صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشىء مما كان فيه من الصلاح والورع والخير ! ! فقال قتيبة بن سعيد : ومن مثل أحمد : والله لولا أحمد بن حنبل لمات الورع فقال مصعب الزبيرى . ومن فى ورع أحمد وعبادة أحمد ، يترفع على جوائز الخلفاء حتى يظن أنه الكبر ، ويكرى نفسه مع الجمالين حتى يظن أنه الذل ، ويقطع نفسه عن مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم أنسا بالوحدة ، فلا يراه الرائى إلا فى مسجد ، أو عيادة مريض ، أو حضور جنازة ، ولم يقض لنفسه بعض ما قضينا لنفوسنا من شهوات ! ! فقال يحيى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل لا والله مانقوى على مايقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد ! ! فقال رجل فى المجلس بعض هذا الثناء ياقوم ؛ فإن الرجل ليس بالمكان الذى تقولون .. فقال الحسين الكرابيسى : مثل الذين يغضون من قدر أحمد مثل قوم يحاولون هدم جبل أبى قبيس بأكفهم ! ! فقال الرجل : « يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم » .

فتغير يحيى بن معين وصاح فى الرجل : أتزعم أن الثناء على أبى عبد الله غلو فى الدين ؟ . ياهذا إن الثناء على أبى عبد الله من أطيب مجالس الذكر ! ! ..

أين هو ؟

كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى :

« أما بعد : فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير : ذى عفة ونزاهة طعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ؛ إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهام الأمور أجزأ فيها ، تقعده الرزانة ، ويسكته الحلم ، له تواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده » .

« قصة ظلام ... »

[مع الأرض فى ظلمها وظلامها
قبل انبثاق النور الأعظم ...]

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

كانت الأرضُ قِصَّةً من ظَلَامِ
رَدَّدَتْهَا قوافلُ الأيَّامِ
وتناجَتْ بها قلوبُ الخيَامِ
واستطارتْ بها نفوسُ الأنامِ
فَهْىَ إعصارُ جِنَّةٍ فى قَتَامِ والبَرايا فى قبضتيهِ أسارَى ..

***

وَيْكِ يا نارُ .. أىُّ سرٍّ حَبيسِ
فى لظاكِ ، رآه أهْلُ المَجُوسِ
زَمْزَمُوا بالصَّلاة والتقديس
وأراقوكِ فى شِعَاب النُّفُوسِ
خمرَةَ الحُبِّ من يَدَىْ إبْلِيس ثم طافوا حوْلَ اللهيب سُكارَى ..

***

وَيْكَ ياصَخْرُ ... أنتَ رَمْلٌ وماء
جَبَلَتْه الرِّيَاحُ والأنواء
كيف هلَّتْ مِن طينِك الأضواء ؟
كيف صَبَّتْ بك الغيوبَ السَّماء ؟
فأتاكَ العُبَّادُ والخُشَعاء وترامَوْا على يدَيْكَ صغارا ..

صَنَمٌ أنتَ .. أم صَفَاةٌ ! أجِبْنِي ..

مَا لِجَفْنَيْكَ ساهتانِ لِجَفْنِي !

مَا لِكَفَّيْكَ فِي هَوَانٍ وَجُبْنٍ ..

شُلّتَا .. يا أصَمُّ ! باللهِ دَعْنِي

مِنْ رُبوبيَّةٍ زَعَمْتَ ، وفَنٍّ .. كيفَ يا شَيْءُ .. قدَّسَتْكَ الصَّحارَى !

***

مَعْبَدٌ ، .. لِلعِبَاد يَحْنُو ويَخْشَعْ

وَلِهَمْس الخُفَّاش يَعْنُو ويَخْضَعْ

وإذَا الرِّيحُ فِي الدَّيَاجِي تُزَعْزِعْ

كَبْكَبَتْ وجْهَهُ المُعار المُرَقَّعْ

فتلاشَى حَصَاهُ مِنْ كل مَوْضِعْ رَبِّ .. هذا الظلامُ يَبْغِي نَهَارا ..

***

ما لِتِلْكَ الوَلِيدَةِ المُسْتَضِيئَهْ

وُورِيَتْ فِي التُّرَابِ .. وهِيَ بَرِيئَهْ !

أيُّمَا سَوْءَةٍ ؟ وأيُّ خَطِيئَهْ ؟

يا لِتِلْكَ الآثامِ هَبَّتْ جَرِيئَهْ !

صُرِعَ القَوْمُ !. أمْ دَهَتْهُمْ خَبِيئَهْ صَيَّرُوا حِكْمَةَ السَّمٰوَاتِ عَارا ..

***

عَابِدَ النَّجْمِ .. لا تَرُغْ مِنْ عِتَابِي

لَسْتُ مُعْفِيكَ من عذاب الجَوابِ ..

ما الذي فيكَ مِنْ عطايا الشِّهابِ ؟

كوكبٌ يستعيرُ ضوءَ الثِّيابِ

كيفَ يُعطيك ..؟ وهو عبد يُحابي دَوْرةَ الشمس ، والبُروجَ الكبارا !

* * *

أيُّها الصابئُ الشريدُ الصّلاةِ

ضِعتَ ما بينَ غفلةِ اللفتاتِ

تَعبُدُ النورَ .. ، وهوَ عبدُ الحياةِ ،

عَبدُ مَنْ بثّهُ بتلكَ الفلاةِ

ثمّ ألقاهُ في يد الظُّلُماتِ فغدَا للغيوبِ فُلْكاً مُدارا ..

* * *

ما لدَيكُمْ يا ضاربي الأزلامِ ؟..

أنا أشكو الطريقَ .. ماذا أمامي ؟

ماوَرائي؟ ..ما بدائي ؟.. ماختامي؟..

اسألوا السَّهمَ .. ليسَ فيهِ لِرامِ ..

.. نبأٌ يشتفي لديهِ أُوامي ! إنّها ضلّةٌ سقتكُمْ تبارا !!

* * *

ربِّ ! هذي مضاربُ الجاهليّهْ

خيّمتْ فوقَها العصورُ الشقيّهْ

جاءَها والزمانُ يجترُّ غيّهْ ..

.. قادمٌ .. في خُطاهُ فجرُ البريّهْ

وبكفّيهِ نجوةُ البشريّهْ من قرونٍ صبّتْ عليها الخسارا ..

* * *

قيلَ : بُشرى السماء .. قالتْ : « مُحمّدْ »

فأكبّتْ أوثانُهمْ وهي تُعبَدْ !

واستجارت نيرانهم وهي تخمد !

وتهاوى إيوان كسرى الممرّد ..

وتهادى من سدرة الله فرقد دكّ بالنور كلّ ليل وسارا ...

***

طهّر الكون من ضلال ورجس

أنقذ الناس من ظلام وبؤس

وسرى نوره إلى كل نفس

سيرة الشمس بين ماء وغرس

ينبت الخير للحياة ، ويُنمي مجدها أينما على الأرض سارا ..

***

وبيمناه للدهور كتاب

نوّرت من ضيائه الأحقاب

وسقى العالمين منه عُباب

فيه للعصر نجدة وإهاب

فيه عن ظلمة الليالي حجاب سرمديّ يفجّر الأنوارا ..

***

أعجز المشركين منه بيان

كبّرت من جلاله الأزمان

وتهاوى لسرّه الكهّان

وجثا الجنّ روعة واستكانوا ..

فهو بحر من الهدى .. وأمان كلّ حيّ إليه يبغي الفرارا ...

في جو "إقبال" شاعر الإسلام

لشاعر اليمن القاضي محمد محمود الزبيري

كان « إقبال » روحاً عالية محلقة ، ولغة الروح لا تترجم . . .
وشاعرنا هنا لا يترجم « إقبال » ولكنه يحلق في جوه : يفسر ويشرح غير ملتزم للأصل ولكنه غير بعيد عنه » .

« التحرير »

الصبح . . .

أرى سحراً يبدو علينا بوجهه ويجلو علينا طلعة اليوم والغد
ولم أستبن من أي نبع شعاعه يجيء ولا من أي عرق ومحتد
ولكن فجراً يقشعر له الدجى أتى مع أذان المؤمن المتعبد

***

إلى أمراء العرب . . .

الشاعر الهندي يهمس في أدب إن لم يسؤكم يا سلاطين العرب
أي الشعوب تعلمت من قبلكم سراً مليئاً بالطرافة والعجب
إن التولى للنبي براءة من عمه الداني القريب أبي لهب
والعالم العربي شعب جاء من فوق الأبوة والبنوة والحسب
وامتد في معنى النبي محمد لا في الحدود ولا الثغور ولا النسب

***

لا تـكف أيها الموج . . .

ثب مع الليل في ظلام البحار وتقلب في لجها الزخار
وانتفض كالبراكين في ثبج البحر وصارع زوابع التيار
لست تلقى يا موج حظاً من الساحل أو راحة من الأسفار
فارفع الرأس حيثما كنت واظهر وامش فوق الخطوب والأخطار
لا تخش من خطب وكن أنت خطباً وحريقاً وشعلة من نار
أنت في عالم الصراع فهيء لك زند المصارع الجبار
أنت إن لم تكن بنفسك إعصاراً تمت تحت وطأة الإعصار

مراكش الخليفية

[يسرنا ونحن نرحب بزيارة وزير خارجية أسبانيا ، وسائر أعضاء الوفد الأسبانى أن نكرر ما سبق أن قلناه لنائب المقيم العام الأسبانى فى تطوان حين زيارتنا لها : وهو أننا نعتقد أن أسبانيا يمكن أن تكون أقرب دول الغرب إلى المسلمين لأنها (أولا) أشدها تعصبا للمسيحية وذلك يجعلها أولى بأن تتقارب مع أهل الأديان فى عالم أصبح على فوهة بركان من الزيغ والرذيلة والإلحاد ، ولأنها (ثانياً) عرفت العرب أكثر من ثمانية قرون فى الأندلس؛ فهى أقدر من غيرها على تقدير سالف مجدهم وحضارتهم . ولكننا نؤمن أن الصراحة الصادقة هى أساس كل تقارب ، ولهذا وجدنا من حق الوفد الأسبانى علينا أن نضع بين يديه ما يعلم المسلمون من حقائق الأحوال فى مراكش الخليفية العزيزة عليهم راجين كل الرجاء أن تكون زيارته مرحلة انتقال حقيقية فى سياسة أسبانيا نحو استقلال مراكش وحريتها] . « التحرير »



يطلق على الجزء الشمالى من المغرب الأقصى (مراكش) المنطقة الخليفية(١) . تعداد سكانها مليون : عاصمتها تطوان . وتقسيمها الإدارى الى نواحى أو مقاطعات :

(١) سبب تسميتها بالمنطقة الخليفية هو وجود الخليفة فيها نائباً عن جلالة سلطان مراكش . وخليفتها الآن هو مولانا الحسن بن المهدى حفظه الله .

* ناحية جبالة عاصمتها : تطوان .
* ناحيه لسكوس عاصمتها : العرائش
* ناحية غمارة عاصمتها : شفشاون .
* الريف عاصمتها : الحسيمة :
* ناحية السكرط عاصمتها : الناظور.

١ — تاريخ الحماية فى سطور :

* فى سنة ١٤٩٠ م استولى الأسبان على موقع « مليلية » واستمر قتال المغاربه من أجلها ومحاصرتهم لها منذ عهد احتلالها إلى سنة ١٨٩٠ ، (أربعة قرون كاملة كانت تمون فيها عن طريق البحر) .

* استفحل شأن الأسبان بعد تخلى البرتغاليين لهم عن « سبتة » وبعد استيلائهم على « الحسيمة » و « بنون دوبلى » .

* فى معاهدتى السلام اللتين فرضتهما أسبانيا على المغرب سنة ١٧٦٧ ، ١٧٩٩ اعترف لأسبانيا بالمواقع المحتلة . وفى وفاق سنة ١٨٠٩ اعترف لها بمنطقة حول مليلية .



* أعلنت أسبانيا الحرب على المغرب واستمر كفاح المغاربة لها من سنة ١٨٥٩ إلى ١٨٦٠ . ووقع احتلال تطوان . وأرغمت الحكومة الشريفة على إمضاء معاهدة صلح الترميت فيها بدفع تعويض ضخم لأسبانيا ، وبأن لأسبانيا أن تمد يدها فى منطقة « سبتة » والاعتراف بمنطقة « سنتا كريز دوماريبكينا » مع إرسال أسبانيا بعثة من الفرنسيسكان لمدينة فاس .

* جاء فى المادة الثامنة من الاتفاق الودى الفرنسى الإنجليزى سنة ١٩٠٤ « أن الحكومتين المتعاقدتين الشاعرتين بشعور الصداقة الخالصة نحو أسبانيا تنظران بنظر الاعتبار لمصالحها المنبعثة عن وضعها الجغرافى ، وعن ممتلكاتها الأرضية فى الساحل المغربى على البحر الأبيض » .

* فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤ وقعت بين فرنسا وأسبانيا معاهدة اشتركت الدولتان فى العمل الذى يجب اتخاذه من أجل احتلال المغرب ، وبينما كان التصريح العلنى فى المعاهدة يؤكد المحافظة على استقلال المملكة الشريفة تحت سيادة السلطان ؛ كانت النصوص السرية تهيىء وسائل الاحتلال .

* فى ١٧ نوفبر سنة ١٩١٠ عقدت معاهدة بالرغم من معارضة السلطان عبد الحفيظ للتعاون فى تنفيذ المعاهدات السابقة ، ولإشراف البوليس الأسبانى على جمارك المنطقة ، وضرائب القبائل والواردات و . . .

* فى ٢٧ نوفبر سنة ١٩١٢ تم الاتفاق بين فرنسا وأسبانيا بحضور ممثل انجلترا على تنفيذ خطة تقسيم المغرب بين الدولتين وهذه الوثيقة هى المستند الوحيد لحماية أسبانيا فى المغرب :

* تنص معاهدة الحماية على إعطاء المنطقة الطنجية الصفة الخاصة التى يخولها لها السلك الدبلوماسى الأجنبى ، كما أن الاتفاق الأسبانى الفرنسى سنة ١٩٠٣ ينص على إبقاء مدينة طنجة فى حالة حياد . وكذا فى نظام سنة ١٩٢٧ الذى يجرى به العمل الآن .

* لم ينقطع جهاد أهل الريف فى سبيل استقلالهم ، وكان أهم دور من أدواره الدور الذى قاده بطل الإستقلال الأمير محمد بن عبد الكريم — عافاه الله وأعزه — فإنه استطاع أن يبسط نفوذه على القبائل ، وأن يشمل إعانها ويتقدم صفوفها غازياً ، مقاتلاً ، تواجه قوات أسبانيا وعددها

مئات الألوف فدحرها ، ثم واجه قوات فرنسا وأسبانيا مجتمعتين فقتل منهم عشرات الألوف وغنم منهم الكثير وسجل أروع الصفحات فى تاريخ المغرب المسلم المكافح .

٢ — الوضع الحاضر فى المنطقة :

* كل أنواع الاجتماعات محظورة إلا بإذن خاص من المراقبة الأسبانية ، ولا يسمح لرجال الدين ومشايخ التصوف بالتجول إلا لمن عرف منهم كامل الاستعداد لخدمة سياسة أسبانيا . أما المبشرون المسيحيون والرهبان فيتمتعون بكامل الحرية فى التجول ونشر الدعايات ضد الإسلام ونبيه .

* وقد نظم الجنرال (أرغاس) مساعدات عظيمة لهذه الدعايات التبشيرية حيث قسم المنطقة الى مقاطعات عربية وبربرية ، وقضى على أحكام الشريعة فى الثانية ، وأحل محلها أحكام العرف ، وفاقاً لما فعلته فرنسا فى الجبل المغربى .

* تتبع السلطات الأسبانية نظام الاقتصاد الموجه للحجر على المغاربة وعدم ترويج بضاعتهم داخل المنطقة إلا بإذن خاص ، مع جلب رءوس الأموال الأسبانية إلى البلاد .

* باب الهجرة مفتوح على مصراعيه أمام المرتزقة من الأسبانيين .

* وزارة الأوقاف والعدلية الإسلامية ليس لها من النفوذ ما يخول لها حق تعيين أبسط موظف دون الرجوع إلى إدارة الشئون الأهلية (الأسبانية) التى تفرض من ترضى عنه من الموظفين .

* ميزانية المنطقة لا ينتفع المغاربة إلا بخمسها بينما الأربعة أخماس تستهلك فى النفقة على الموظفين الأسبان ومختلف المصالح والمؤسسات الأسبانية . ويتقاضى الموظف المغربى ثلث ما يتقاضاه مثيله الأسبانى من الماهية .

* سلطات الحماية هى التى تجهز الميزانية ، وليس لحكومة الخليفة سوى التوقيع عليها .

* عدد المدارس الأولية بما فيها الكتاتيب القرآنية ٤٥ بها من التلاميذ ٥٣٧١ ، وتوجد مدرسة ثانوية واحدة بها ٦١ تلميذاً ، وليس للتعليم المهنى سوى مدرسة واحدة ، ومدرستين أوليتين للأشغال .

* التعليم الأسبانى فى المنطقة ينفق عليه من الخزينة المغربية ويشمل ١٧ مدرسة ابتدائية ، وخمس مدارس ثانوية ، ومعهد الموسيقى . ومحطة الإذاعة الأسبانية والمنح المدرسية التى تعطى للأسبانيين للدراسة فى بلادهم كل ذلك من ميزانية المنطقة .

* لم يتخرج طوال مدة الحماية الأسبانية فى المنطقة إلا طبيبان وأربعة محامين ومهندس واحد .

* عدد المستشفيات فى المنطقة خمس .

* ليس فى المنطقة كلها ميناء تجارى واحد .

* ولكن أهل مراكش الخليفية بالرغم من كل ذلك لا يزالون ينطوون على روح عالية وحفاظ لعهد الجهاد القديم مما يبشر فى هذا الجزء العزيز من ديار الإسلام بفجر سعيد لا شك فيه .

* * *

وبعد :

فإنا نرجو أن تكون الوعود الكثيرة المزجاة أثناء رحلة وزير خارجية أسبانيا تمهيداً صادقاً لرد حقوق هؤلاء الإخوة الأعزاء فى الحرية والاستقلال .

في أفق العالم الإسلامي

أمن المحراب إلى السياسة ؟

أم من السياسة إلى المحراب ؟

تعددت المؤتمرات الإسلامية حتى أصبحت الدعوة إلى مؤتمر إسلامي أمراً تألفه الآذان ، وكانت قبل عهد قريب حدثاً يثير كل انتباه ، وحتى ترددت دعوة أخرى إلى توحيد هذه المؤتمرات ، وإلى توجيه جميع الجهود إلى وجهة واحدة . وكان على رأس مرددبها فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مقابلته لوفد مؤتمر الشعوب الإسلامية المزمع عقده في الباكستان في الخامس عشر من شهر شعبان بدعوة من السيد جودري خليق الزمان . وإذا كانت هذه المؤتمرات مظهر صحوة مباركة في العالم الإسلامي ؛ فإن تعددها مظهر لاتجاهات مختلفة ومثار قلق للذين يحرصون على خير الإسلام ، ويعلمون أن قضيته قضية واحدة . .

ولكننا — ونحن ندعو لهذه المؤتمرات جميعاً بالتوفيق — لا نستغرب تعددها ، بل نراه طبيعياً ؛ فقد قدر لنا أن نحضر أكثرها وأن نشهد ما يدور فيها من كثب ؛ بل أن نشترك في بعض أعمالها ، ولاحظنا أن المعنى القوى الذى تصطبغ به هذه المؤتمرات كلها وتتأثر به هو المعنى السياسى الثائر المتحمس . وهو معنى يختلف التأثر به ، وتختلف وجهة النظر في الاستجابة له دون مقياس واحد أو فكرة محددة ؛ فلا عجب إذن أن تتعدد المؤتمرات .

إن قضية الإسلام لا تكاد تعدو لدى هذه المؤتمرات قضية أوطان مستعمرة يجب أن تتحرر ، وتأتى « الإسلامية » فيها بمعنى أن تتعاون هذه الأوطان في قضية التحرر . أما ما سوى ذلك من معانى الإسلام ومثله وفضائله الثابتة فأمور لا ينكرها أحد ، ومسائل نظرية حين التذكير بها تبحث وتدرس . وإنك لتجد في المؤتمرين بالنسبة لهذه المعانى صنفين متميزين : أحدهما غلبته الحماسة السياسية وتمكنت من أصول تفكيره وتقديره ؛ وهذا لا يكاد يفهم الحديث عن فضائل الإسلام وتعاليمه إلا على أنه وسيلة لجمع القوى وإثارة المشاعر في سبيل التحرر السياسى .

والصنف الثانى يدرك فكرة الإسلام إدراكاً أوسع ، ويفهم كثيراً من مطالبها ؛ ولكنه يؤمن بالأسلوب السياسى في تحقيقها ، وقد صارحنى كثير منهم : وهم من كبار المشتغلين بالحركة الإسلامية اليوم ؛ بأن الوعظ والإرشاد لم يعودا يجديان في تحريك مشاعر المسلمين ، وبأن التفكير السياسى هو الذى ينقصنا ، وأن الشعوب لا يحييها مثل الإحساس بالظلم والشوق إلى الحرية ؛ فلنحرك مشاعر المسلمين هكذا ، ولنجمعهم جميعاً على تحطيم أغلالهم واستخلاص حقوقهم ، وليكن ذلك طريقنا إلى كل معانى الإسلام من بعد . . .

هذا كلام نهتم به كثيراً ، ونرى فيه ظاهرة لخطر رد الفعل الذى تحدثنا عنه في أكثر من عدد من « المسلمون » . والقائلون به لهم علينا حق النصيحة ما داموا يقولون إنهم يرون ما هم فيه طريقاً إلى مجد الإسلام الذى نؤمن به جميعاً ونحلم به جميعاً . . . ؛ ونصيحتنا نلخصها في ثلاث :

(أولا) إن دعوى أن الشعوب لا يوقظها غير المعانى السياسية من الضيق بالظلم والشوق إلى الحرية دعوى ينقصها الدليل ، وليس لها من سبب فيما نرى إلا التأثر بالثورات السياسية فى تاريخنا الحديث ، والسأم من الشعوذة المقيتة التى خدرت عواطف المسلمين ، أما أنها دعوى قائمة على نظر عميق فى التاريخ فذلك ما نختلف معهم فيه ؟ فإنك حين تنقب فى كل جزء من أجزاء دبار الإسلام لا تلبث أن تجد الشعلة القائمة وراء كل حركة أو ثورة ، والروح المبقية على شىء من معانى الإباء والتضحية والنزاهة هى الدين ؟ ولذلك كان هتاف هذه الحركات والثورات جميعاً « الله أكبر » . كان هذا بالرغم مما يعانيه الدين من الجهل والخرافة والمسوح الكاذبة ؟ فكيف به لو خلص من كل ذلك وقام فى معتنقيه كما قام أول مرة — روحا قويا أبيا ينكر كل ضروب المذلة بعزة الله ، ويتحدى كل صعب باسم الله ؟ ! !

ثم إن أية معركة تثور فى الأرض ، مهما أضفى عليها الناس من أوصاف وأسماء ، لا تعنى الله عز وجل إلا بقدر ما تنتسب إليه « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » . فليست الغاية أن يثور الناس ، ولكن أن يثوروا لله رب العالمين . ومشاعر الناس أمانات لا تستعمل إلا فيما جعلها الله من أجله ، ومن ظن أن رغيف الخبز أو حمية الجاهلية أقوى أثراً فى هذه المشاعر من كلمة الله فهو لا يقدر كلمة الله قدرها ، وينزل الإنسان منزلة الحيوان ؟ وأولى به أن يعكف على نفسه يرعى خصائصها الإنسانية الرفيعة ويزكى خاصتها الربانية الأصيلة « ولكن كونوا ربانيين » ، وليخاطب الناس بعد ذلك فإنه واجد فى خصائص نفسه الجديدة لغة رائعة غير لغة الرغيف والحمية والعصبية ، لغة الروح القاهرة التى تكلم بها الأنبياء فأحيوا القلوب الميتة ، وبعثوا الهمم الراكدة ، وزلزلوا جوانب الأرض ، وتميز كفاحهم فى التاريخ بأنه الكفاح فى سبيل كلمة الله وحدها ، وأسمى القرآن أيام معاركهم « أيام الله » . . . ألا ترون كيف أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم حين تداعى الأوس والخزرج بأنسابهم قال : دعوها فإنها منتنة !

(ثانياً) إن أحداً لا ينكر أن رسالة الإسلام فى إقامة المجتمع الإنسانى رسالة أخلاقية وذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . والخلق يحتاج إلى نظام تربية دقيق يرعى النفس فى مختلف تقلباتها ، وخاصة فى عصر المغريات القاتلة الذى نعيش فيه ، فهل يمكن أن تأخذ هذه التربية حقها إذا بدأنا عملنا فى جو سياسى صاخب كثير الضجيج والتبعات ؟

(ثالثاً) إن السوق السياسى كثير المظاهر والمراكز ، كثير الأمانى والآمال ، فهو بطبيعته يجذب ذوى المطامع والأهواء . وما أسهل ما يصطنع هؤلاء مظاهر الحماسة الزائفة ، وما أصعب أن يتميزوا من غيرهم؟ فان الثورات السياسية تغيب معها عادة المقاييس الدقيقة للأخلاق، فإذا أضفنا إلى هذا أن أكثر المشتغلين بالسياسة فى العالم الإسلامى نشأوا فى حكم وثقافة غريبين على الإسلام ، وأن أعداء هذا الإسلام لا يزالون يبسطون أيديهم بمختلف ألوان الفتنة يشترون بها الذمم والضمائر أشفقنا على هذه الحركات وهى لا تزال فى مهدها رغم ما نعلم من إخلاص كثير من القائمين بها . وقد جربنا ذلك كثيراً ولا نزال نعانى منه المر . . .

* * *

كل ذلك يجعلنا نؤمن أن الطريق الطبيعى يجب أن يكون من المحراب إلى السياسة لا العكس ، وألا يسبق عهد الغزوات عهد دار الأرقم . . . وأن تبقى خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج كل مسلم مكافح .

أخبار متفرقة

● يقوم السيد محمد ناصر رئيس الوزارة الأندونيسية الأسبق ورئيس اللجنة التنفيذية لحزب « ماشومى » الإسلامى برحلة دراسية استطلاعية فى بلاد العالم العربى والإسلامى للوقوف على الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لها ؛ خاصة ما كان منها حديث عهد بالحرية ويواجه من الظروف والمشاكل ما تواجهه أندونيسيا نفسها . والسيد محمد ناصر شديد الغيرة على الإسلام قوى الإيمان بشريعته ، ومجاهد صادق محبوب . . ونحن نرجو له التوفيق فى رحلته ، آملين أن تحقق حسن التفاهم والتعاون بين بلاد العروبة والإسلام .

● مازالت قضية وادى النيل حائرة بين المرحلة الاستطلاعية والمقابلات والمكاتبات فى الوقت الذى يخطو فيه الإنجليز خطوات سريعة نحو إتمام دستور السودان . . ولعل مباحثات عمرو باشا وإيدن وستيفنسون وهاو توضح سريعاً للمسئولين ماينبغى عمله فى المرحلة القادمة من قضية البلاد . وقد أجل إجراء الانتخابات فترة من الزمن ، ويجرى البحث الآن فى تعديل قانون الانتخابات .

● رفض مجلس الأمن إدراج شكوى تونس فى جدول أعماله وهى أول مرة فى تاريخه يرفض فيها إدراج شكوى يتقدم بها عضو من أعضائه . وقد أيدت البرازيل وشيلى والصين وروسيا والباكستان إدراج القضية ، ورفضت بريطانيا وفرنسا إدراجها ، وامتنعت عن التصويت أمريكا وهولندا واليونان وتركيا .

وبدأت الوزارة التونسية الجديدة مباشرة مهام الحكم رسمياً ؛ ولكنها قلقة لاتكاد تستقر . وتدرس الباكستان مسألة دعوى الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى جلسة خاصة لمناقشة القضية .

● أفرجت الحكومة السورية أخيراً عن فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى وعن دولة الدكتور السيد محمد معروف الدواليبى .

● أعلنت جمعية الشبان المسيحية بنيويورك نبأ تعيين المستر دالتون ماكليلاند أحد كبار رجال الجمعية الذين خدموها ثلاثين سنة فى الهند سكرتيراً متجولا يتولى الإشراف على الأعمال التى تقوم بها فروع الجمعية فى مناطق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب آسيا . وسيتخذ المستر ماكليلاند القاهرة مقراً لأعماله .

● غصت مدينة بيت المقدس خلال هذا الشهر بأجانب كثيرين وخرجت مواكب منهم فى الشوارع تهتف بانتصار الصليب وأمر رجال الشرطة أصحاب المحال التجارية بإسكات أجهزة (الراديو) وكان يذيع القرآن قبل صلاة الجمعة . . . .

● جاء فى تقرير قدمه المستر تريجفى لى سكرتير عام الأمم المتحدة إلى المجلس الاقتصادى والاجتماعى أن من بين الدول التى ساهمت فى إغاثة الشعب الكورى عشر دول فى الشرق الأوسط وأفريقيا ، وأن مصر قد تبرعت لهذا البرنامج بمبلغ ٢٨ ألف دولار !!

● جاء فى حديث لسماحة سيد العراقين العالم الإيرانى المعروف أن إيران تأمل أن تشترى منها الدول الإسلامية والعربية التى لا تنتج البترول حاجتها من هذه المادة عسى أن يكون فى ذلك بعض التعويض عما تحاول بريطانيا إنزاله بإيران من أضرار اقتصادية فادحة .

● صرح رودلف سونيورن رئيس حركة جمع التبرعات لليهود فى أمريكا بأنه قد أمكن جمع ١٢١ مليون دولار خلال الأحد عشر شهراً الماضية ، وقال إن المطلوب هو جمع ٥٠٠ مليون لمساعدة إسرائيل .

• قضت إحدى المحاكم المصرية بغرامة على الأستاذ وحيد سوار المعيد بكلية الحقوق السورية ، والذى يدرس الدكتوراه بمصر ؛ لأنه لم يقيد اسمه فى سجل الأجانب بوزارة الداخلية عقب حضوره إلى مصر ؛ كما يوجب ذلك القانون المصرى على كل أجنبى يدخل البلاد . وكان مما دافع به عن نفسه أنه يشعر عندما تطأ قدمه مصر منتقلا إليها من سوريا أنه انتقل من بلد سورى إلى بلد سورى آخر ، وأنه مما يحز فى نفسه أن تتجاهل الأنظمة القائمة فى مصر هذا الشعور ، وتعامل أبناء العروبة كما تعامل الأجنبي غير العربى . . وأن هذه القيود ما هى إلا ذيول لما وضعه المستعمرون . . ولقد آن لمصر أن تضرب بها عرض الحائط .

• تعتبر ثورة الملونين فى جنوب أفريقيا من أهم أحداث الشهر ؛ فقد عقدوا اجتماعات فى جميع أنحاء البلاد المناداة بمناهضة قوانين التفريق العنصرى التى سنتها الحكومة ، وينوى عدد من المتطوعين الملونين احتلال المقاعد المخصصة للبيض فى السيارات والحدائق العامة ، كما يزمع تأليف قيادة ممثلة للزنوج والهنود الملونين لاتخاذ تدابير من طراز عسكرى تتحدى قوانين التفريق العنصرى . وقد قررت الحكومة البريطانية عزل زعيم القبيلة سريتس خاما من رئاسة القبيلة بسبب زواجه من امرأة بيضاء . كما أعلن أن البوليس سيقاوم أى نشاط يقوم به الملونون للاحتجاج على قوانين العنصرية .

وكلاؤنا فى العالم الإسلامى

أندونيسيا : مكتبة سالم نبهان ص . ب ٥٥ — سورابايا

الملايا : سعادة السيد إبراهيم بك السقاف — سنغافوره

الباكستان : مكتبة نور محمد فرير رود أرامباغ — كراتشى

مكة المكرمة : الحاج صالح جمال — مكتبة الثقافة

المدينة المنورة : الحاج أحمد أبو السعود — معهد السجاد المصرى

العراق : الأستاذ عبد الرحمن بك خضر المحامى — بغداد

سوريا ولبنان : السيد عدنان اسطوانى — دمشق — سوق الخوجة

شرق الأردن : السيد ممدوح كركر — عمان — دار الإخوان المسلمين

ليبيا : الأستاذ محمد على بوقعيقيص — بنى غازى — صاحب مكتبة بميدان الحدادة

تونس : السيد الحبيب اللمسى — ص . ب — ٦٧٧

الجزائر : جمعية العلماء الموقرة

مراكش : الأستاذ أحمد بن سودة — الدار البيضاء — جريدة الرأى العام

طنجه : السيد عبد القادر الجزائرى صاحب مكتبة الثقافة

وإدارة المجلة ترجو المشتركين الفضلاء أن يرجعوا إلى حضرات الوكلاء فيما يحتاجون إليه